من حقائق الكون في التعبير القرآني

دراسة أسلوبية بلاغية

تأليف

الدكتور عمران اسماعيل فيتور
الدكتور طالب محمد اسماعيل



ASSOCIATION MONDIALE DE L'APPEL ISLAMIQUE


مِنْ حَقَائِقِ الكَوْنِ
فِي التَّعْبِيرِ القُرْآنِيِّ



من حقائق الكون في التعبير القرآني

تأليف الدكتور عمران إسماعيل فيتور ـ والدكتور طالب محمد إسماعيل

الطبعة الأولى

منشورات جمعية الدعوة الإسلامية العالمية

سنة الطبع: 1376 من وفاة الرسول ﷺ «2008 مسيحي»

طريق السواني ـ طرابلس ـ الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية العظمى

هاتف: 65 ـ 4808461 ـ بريد مصوّر 4800293

ص. ب: 2682 طرابلس ـ الجماهيرية العظمى

E-mail: Media@islamic-call.com

www.islamic-call.com ☐ www.islamic-call.net

الرقم المحلي: 13/2007/دار الكتب الوطنية بنغازي

الرقم الدولي: ردمك 1 ـ 096 ـ 28 ـ 9959 ـ ISBN 978



دراسة أسلوبيّة بلاغيّة

تأليف
الدكتور عمران اسماعيل فيتور
الدكتور طالب محمد اسماعيل



ASSOCIATION MONDIALE DE L'APPEL ISLAMIQUE

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

المقدمة

الحمد لله ربِّ العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا (محمد) وعلى آله وصحبه أجمعين

أما بعد:

فلقد آثرنا أن نقدّم في هذه المحاولة البحثية المتواضعة، جهداً علمياً يتميّز بالاعتماد على مزج عنصرين: ـ

الأول: المعرفة اللغوية والدلالية والبلاغية، والقدرة على تدبّر معاني الآي الكريم.

الثاني: متابعة نتائج البحوث العلمية، والدراسات الميدانية التي لها صلة بمجال هذه الدراسة.

أي إنّ هذا المنهج اختير له أبلغ ميدان وأكرم موقع، وهو سياق النظم القرآني، لذلك تطلب استشراف دلالة المفردة القرآنية ومحاولة ـ بالاستعانة بكتب التفسير القديمة والحديثة ـ الكشف عما يطويه السياق الكريم من إشارات أسلوبية، وفضائل بلاغية، ولمحات لغوية، وومضات من الإعجاز العلمي للقرآن الكريم، ثم التنبيه على ما أكدّته التجارب والبحوث العلمية الحديثة، من خلال ما توصلت إليه منذ زمن قريب.

ولما كان أحد أهداف هذا الكتاب دراسة الظواهر الطبيعية في القرآن الكريم، اقتضى ذلك تقسيم الموضوعات إلى ثلاثة فصول:

الفصل الأول: (ألفاظ الألوان ودلالاتها في القرآن الكريم): يتضمن مبحثين، يتناول المبحث الأول: موضوع «الألوان في المعاجم» وموضوع «طبيعة الألوان»، ويتناول المبحث الثاني «دلالات ألفاظ الألوان في القرآن الكريم».

الفصل الثاني: (الضوء) و(النور) في الإعجاز المبين، يتضمن ثلاثة مباحث: المبحث الأول: تخصص بدراسة مفهوم (الضوء) ـ والمبحث الثاني: (يتناول مصادر الضوء) أما المبحث الثالث فقد درسنا فيه مفهوم (النور).

أما الفصل الثالث: فقد تناول موضوع (الظل).

وأنت ترى أَنَّ هذه العناصر (اللون) و(الضوء) و(النور) و(الظل) لا يمكن فصل بعضها عن بعض، فكل عنصر يتمم الآخر. ويطلق عليها أَهل العِلْم (الظواهر الفيزيائية). ولعلك تدرك ـ **أيها القارئ العزيز** ـ أنّ **هدف هذه الدراسة** هو، تطوير القدرة اللغوية لدى طلبتنا لتمكينهم في المجالات التطبيقية للغة العربية إذ تتضمن نظرة شاملة إلى علوم اللغة العربية (النحوية والصرفية والبلاغية والأُسلوبية).

ولعل في هذه المحاولة ما يدفع طلبتنا وكلَّ الباحثين إلى مواصلة البحث العلمي الدؤوب من أجل خدمة لغة القرآن الكريم، ومحاولة الكشف عن أسرار اللغة وخفايا الكون في (**الإعجاز القرآني**) الذي لا تنتهي عجائبه إلى أنْ يرث اللَّه الأرضَ ومن عليها، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت: 53].

ولا ندعي في هذا الجهد الكمال؛ لأَنَّ الكمال لله عز وجل وحده؛ بل نقبل كل نقد يقوّم هذا الكتاب ويقوّي منهجه وحسبنا قول الرسول ﷺ: (للمجتهد إن أصاب أجران، وإن أخطأ أجر واحد).

ورحم الله عز وجل «العماد الأصفهاني»، إذ يقول:

(إني رأيت أن لا يكتب أحد كتاباً في يومه إلا قال في غده، لو غُيّر هذا

لكان أحسن، ولو زيد هذا لكان يستحسن، ولو قدّم هذا لكان أفضل ولو ترك هذا لكان أجمل، وهذا من أعظم العبر وهو دليل على استيلاء النقص على جملة البشر).

اللهم اجعلنا من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه

والله ولي التوفيق

المؤلفان

الفصل الأَوَّل

أَلفاظ الأَلوان ودلالاتها في القرآن الكريم

يتضمن هذا الفصل مبحثين:

المبحث الأول: يتضمن هذا المبحث موضوعين:

الموضوع الأول: «الألوان» في المعاجم العربية

الموضوع الثاني: طبيعة الألوان

المبحث الثاني: الألوان ودلالاتها في القرآن الكريم

المبحث الأول

يتضمن هذا المبحث موضوعين

الموضوع الأول: «الألوان» في المعاجم العربية[1].

قال أهل اللغة: (اللون): الحالة الصبغية التي يكون عليها الجسم ونحوه من بياض أو سواد أو نحوهما وقيل ـ أيضاً ـ (اللون) من كل شيء ما فصل بين الشيء وغيره، و«اللون»: هيئة كالسواد والحمرة وهو للجنس أو النوع أو الصنف من الأشياء، وجمعه «ألوان».

وذكر بعضهم: أن (اللون) تكيّف ظاهر الشيء في العين، أو هو الكيفية المدركة بالبصر، من حمرة أو صفرة أو غيرهما و«لون» كـ(سود) ـ كلاهما مطوع: لوّنه تلويناً، ولوّنت الشيء فتلوّن، ويقال: كيف نخلكم؟ فيقولون: حين لون؛ أي: أخذ شيئاً من اللون وتغيّر عما كان؛ أي: اكتسى لوناً غير اللون الذي كان له. وجئت حيث صارت الألوان كالتلوين، وذلك بعد المغرب؛ أي: تغيرت عن هيئتها لسواد الليل فلم يبق الأبيض في مرأى العين أبيض ولا الأحمر أحمر. ولوّن الشيب فيه ووشع، إذا بدا في شعره وضح الشيب، ومن المجاز: عنده لون من الثياب، صنف منه، ونقول تناولت ألواناً من الطعام ـ أي: أصنافاً ـ ومثله اختلطت بألوان من الناس، ورجل متلوّن: مختلف الأخلاق؛ أي: لا يثبت على خلق واحد.

---

(1) أساس البلاغة ـ الزمخشري (لون) 576، المفردات في غريب القرآن ـ الراغب الأصفهاني (لون) ص 112. لسان العرب ـ ابن منظور (لون) 576، تاج العروس في جواهر القاموس ـ المجلد التاسع (لون) ص 337.

و(الألوان) أصناف: (الأبيض) ضده (لأسود)، ونقول هذا أشد بياضاً من كذا.. ولا تقل أبيض منه، و(الأحوى): الأسود، يقال: شَعْرٌ أحوى: أسود، و(الأدعم): أسود ـ أيضاً ـ، و(الأورق) من الإبل: ما في لونه بياض إلى سواد، و(الأبيضان): الماء والحنطة، و(البيضاء): الشمس لبياضها، و(البرص): بياض يظهر في ظاهر البدن لفساد مزاج ـ أي: لعلة مرضية ـ ومن المجاز: (بت لا يؤنسني الأبرص)؛ أي: القمر. و(الأرمد): على لون الرماد، ويقال: تربدت السماء والسماء متربدة؛ أي: متغيمة. و(الحمرة): من الألوان المتوسطة، يقال: أحمرَّ الشيء احمراراً إذا لزم لونه فلم يتغير من حال إلى حال، والعرب تسمي سنة الجدب: «الحمراء»، ويقولون: هو الموت الأحمر والموت الأسود ومعناه الشديد، و(حمارة القيظ): شدة الحر، و(الصهب): حمرة أو شقرة في الشعر. أما قولهم (أحمر قان): فهو شديد الحمرة. و(الفاقع): الخالص الصفرة، و(الفقوع): شدة البياض، و(أحمر فقاع وفقاعي): يخلط حمرته بياض، وقيل: هو الخالص الحمرة.

و(الخضرة) من ألوان النبات والحيوان وغيرهما ـ يقول: ٱخضرَّ الشيء ٱخضراراً وكل غصن خضر، و(الأدهم) ـ في الأصل ـ الأسود، ولكننا حين نصف (حديقة) فنقول: (حديقة دهماء ومدهامة). نقصد أنَّها خضراء تضرب إلى السواد نعمة وريّا، قال تعالى في وصف «الجنتين»: ﴿مُدْهَآمَّتَانِ﴾؛ لأنهما تضربان إلى السواد من شدة الري. وسميت قرى العراق (سواد): لكثرة شجرها ونخيلها وزرعها، و(الجون): الأسود المشرب حمرة، وقيل (الجون) الأبيض، أو الأحمر الخالص، و(البُني) منسوب إلى البُن، و(لون قاتم)؛ أي: أغبر يعلوه سواد و(الكحلاء): الشديدة سواد العين.

ولعل من المفيد أن نشير ـ في هذه المقالة الموجزة ـ إلى أنَّ بعض المصطلحات (**البلاغية**) أو (**الأسلوبية**)، التي تبدأ أصولها اللغوية من مادة (اللون)، قد تطورت دلالاتها فصارت تدلّ على أحد أساليب التعبير البليغ، مثل

مصطلح: «التلوين»، فهو في الأصل يقصد به تقديم الألوان من الطعام ـ مثلاً ـ للتفكه والتلذذ، أما في **الاستعمال البلاغي**، فيقصد به تغير أسلوب الكلام إلى أسلوب آخر ضمن نسق واحد، و(التلوين) أعمّ من أسلوب (الالتفات)، كذلك مصطلح «التدبيج»، الذي يقصد به تقابل لونين أو أكثر، أمّا في الاستعمال البلاغي فيعني تقابل الأساليب البلاغية ضمن سياق واحد، وسنأتي إلى تفصيل ذلك في موضوعه ـ إن شاء الله تعالى ـ.

الموضوع الثاني: طبيعة الألوان

من نعم الله ـ سبحانه وتعالى ـ علينا نعمة جمال الكون وسحر الطبيعة، يقول عز وجل: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾ [النحل: 6]، هذا الجمال له أسراره التي حاول الإنسان إدراك بعضها ببصره وبصيرته، فراح يتأمّل تلك الألوان البديعة الزاهية التي يمتزج بعضها ببعض لتكون مجموعات جذابة لا حصر لها، ومعلوم أنّ (اللون) و(الضوء) ظاهرتان غير منفصلتين؛ لأن (للعين عدسة مؤلفة من أنسجة شفافة، وعدسة العين فتحة ينفذ من خلالها الضوء إلى العين وهذه الفتحة تكبر وتصغر بواسطة القزحية، وهي التي تكسب لونها، فإذا كان الضوء قوياً تغلق الحدقة إغلاقاً جزئياً، بحيث لا يدخل العين ضوء شديد لأن الضوء الشديد يعمي العين، أما إذا كان الضوء خفيفاً، فأن القزحية تسبب اتساعَ الحدقة، وفي مؤخرة العين توجد الشبكية التي تسقط عليها صورة المرئيات التي نشاهدها، فإذا سقطت الصورة على الشبكية فإنّ العصب البصري ينقل صورتها إلى المخ ثم تبصره العين، وحينما ينعكس الضوء على جسم ما فإنه يمتصّ بعض موجات هذا الضوء ويردّ بعضها الآخر، وهذا الجزء المردود يؤثر في خلايا العين، فتدرك اللون)[1].

ونحن حين نذكر الألوان يذهب الذهن إلى ألوان الطيف الشمسي:

(1) الموسوعة العلمية ص 223 (بتصرف).

(الأحمر) و(البرتقالي) و(الأصفر) و(الأخضر) و(الأزرق) و(النيلي) و(البنفسجي). واللون (الأبيض)؛ هو: نتاج اختلاط هذه الألوان جميعاً، أمّا اللون (الأسود): فهو انعدام اللون كالظلام فهو انعدام الضوء أو النور.

ويبدو أنّ بعض هذه الألوان قد نُسب صراحة إلى شيء، فاستمدّ لونه منه؛ فاللون (البرتقالي) - مثلاً - هو ما ينسب إلى ثمرة (البرتقالة)، واللون (البنفسجي): من زهرة البنفسج، واللون (الأخضر): من لون خضرة (الزرع)، واللون (الأزرق): من لون السماء، كما (ينطبق على الماء الصافي)[1].

واللون (الأبيض): من لون (البيضة)، وقيل أن اللون (الأحمر): من (تسمية ذلك الحيوان الذي عرفته البشرية منذ زمن قديم وكان لونه أحمر)[2].

ومن المعلوم - أيضاً - أن بين هذه الألوان مستويات أخرى من الألوان، فيقال: أزرق فاتح، وأزرق غامق، وأحمر قانٍ، وذلك (يعتمد على درجة اللون)؛ أي: على مقدار قربه من الأبيض أو الأسود، ومن أحد العناصر اللونية الأساسية المكوّنة له، فإذا كان اللون قريباً يبدو للعين واضحاً جلياً، أما إذا كان بعيداً، فإنه يبدو متداخلاً مع لون آخر[3].

وقد وجدنا من المناسب دراسة ظاهرة (الألوان - في الفصل الأول - في السياق القرآني الكريم. فالقرآن الكريم هو معجزة الإسلام الخالدة أنزله الله - سبحانه وتعالى - على رسوله النبي الأُمّي (محمد) ﷺ ليُخرج الناس من الظلمات إلى النور.

ونحن جميعاً على يقين راسخ وثابت أنَّ التقدم العلمي يؤكد صدق الرسالة الإسلامية، وعظمة الإعجاز العلمي للقرآن الكريم، مما يزيده رسوخاً في القلوب

(1) إصلاح المنطق ص 46.
(2) لمحات من تاريخ الحياة الفكرية ص 2.
(3) الموسوعة العلمية ص 224.

والعقول، ولكن لا يقصد بهذه الدراسة تتبع سياق **الإعجاز القرآني**، لما توصل إليه العلم الحديث في الكشف عن بعض الظواهر العلمية والحقائق الكونية؛ بل توخينا البحث في بعض **الأسرار البلاغية والأسلوبية** والدلالية، للنسق القرآني الكريم في هذا الميدان، محاولين ـ قدر المستطاع ـ إبراز بعض القيم الجمالية، التي تضمنتها البنية النصية للعبارة القرآنية، ثم الإشارة إلى ما توصل إليه العلماء المحدثون، لتثبيت فضيلة **السبق للإعجاز العلمي** في القرآن الكريم، في كل ميادين الحياة.

فليس بجديد أن نقول: (إن القرآن الكريم جاء معجزاً في بلاغة أسلوبه، وسمو معانيه، وجوامع كَلِمِهِ، وجاء معجزاً بما قصّه من سِيَر الأنبياء والمرسلين السابقين، التي ما كان يعلمها سوى علماء أهل الكتاب، وجاء مُعجزاً بما تضمَّن من تشريعات حكيمة ومُثُلٍ عليا تتفق مع طبائع البشر في كل مكان وزمان، تكميلاً لِفِطرتهم وضماناً لسعادتهم، وجاء معجزاً بما حوى من آيات العلم والمعرفة الصحيحة عن الجوانب المادية من الكون، مما لم يكن للناس علم به قبل نزوله أو بعده، حتى جاء العلم الحديث بوسائل بحثه الدقيق المستندة إلى الخبرة والمشاهدة، فكشف عن كثير منها وأماط اللثام عن حقائقها، ولم تتعارض حقائقه معها في شيء ما)[1].

إن النص القرآني قد يصرّح ببعض ألفاظ الألوان مثل: (الأبيض) و(الأسود) و(الأخضر) و(الأسود) و(الأحمر) و(الأصفر)، وغيرها أو قد يشير إليها في بعض المواضيع.

وذلك استجابة لمقتضى المقام والحال، وتلبية للغرض من الكلام، وفيه ما لا يخفى من أثر نفسي عميق، وتدريب للذوق الإنساني في استشراف القيم الجمالية التي تنطلق من قدرة الخالق وعظمته، إذ يقول تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ﴾ [الروم: 22].

(1) التفسير العلمي للآيات الكونية في القرآن ص 31.

إنَّ خلق السمٰوات والأرض آية عظيمة مشهودة بما فيها من تصاريف الأجرام السماوية والأرضية، وما هو محل العبرة من أحوالها المتقاربة المتلازمة؛ كالليل والنهار والفصول، والمتضادة؛ كالعلو والإنخفاض.

واختلاف الألسنة والألوان، لا بد أنّها ذات علاقة بخلق السمٰوات والأرض، فاختلاف الألسنة سببه القرار بأوطان مختلفة متباعدة، واختلاف الألوان سببه اختلاف الجهات المسكونة من الأرض، فكأن السياق الكريم قد تقدم بآية خلق السمٰوات والأرض للإيماء إلى انطواء أسباب الاختلاف في أسرار خلق السمٰوات والأرض.

والألسنة: جمع لسان، وهو يطلق على اللغة، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ﴾ [إبراهيم: 4]، وقوله عز وجل: ﴿لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾ [النحل: 103].

واختلاف لغات البشر آية عظيمة، فهم من ٱتّحادِهم في النوع كان ٱختلافهم آية دالة على ما كوَّنَهُ الله في غريزة البشر من ٱختلاف التفكير وتنويع التصرف في وضع اللغات، وتبدل كيفيتها باللهجات والتخفيف والحذف والزيادة، بحيث تتغير الأصول المتحدة إلى لغات كثيرة.

وأمّا اختلاف «ألوانكم»، فهو آية أخرى؛ لأن البشر منحدر من أصل واحد وهو آدم عليه السلام، فلما تعدد نسلُه جاءت الألوان المختلفة في بشرتهم ببياض الجلد وسواده، وتوسطه فيما بينهما، أو تخطيطات الأعضاء وهيآتها وألوانها بحيث وقع بها التمايز بين الأشخاص[1].

إن نسق الألوان موضوع محبب للقلوب والعقول، وقد أحاط القرآن الكريم بأبعاده وسبر أعماقه في أكثر من موضع، ومن ذلك قوله عز وجل: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ﴾ [فاطر: 28].

(1) ينظر: تفسير أبي السعود ج 5/ 181.

فإنّ النظم الكريم سلك **الإيجاز** في مجموع المختلفات كله، الناس كلهم، كذلك الدواب والأنعام، فقد نَبَّهَ القرآن الكريم إلى اختلاف الألوان في الكائنات الحية، فكل فرد متميز بين بني جنسه؛ بل متميز من توأمه، كذلك الاختلاف في ألوان (الدواب) و(الأنعام).

كما ذكر باختلاف (الثمرات)، فقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا﴾ [فاطر: 27].

يقول الشيخ الطاهر بن عاشور في تفسيره للنص الكريم؛ (الخطاب للنبي ﷺ ليدفع عنه اغتمامه من مشاهدة عدم انتفاع المشركين بالقرآن، والرؤية بصرية.

والاستفهام تقريري، وضمير ﴿فَأَخْرَجْنَا﴾ التفات من الغيبة ـ في قوله عز وجل ـ ﴿أَنزَلَ﴾ إلى التكلّم ﴿فَأَخْرَجْنَا﴾، والألوان جمع لون وهو عرض؛ أي: كيفية تعرض لسطوح الأجسام بكيفه النور كيفيات مختلفة على اختلاف ما يحصل منها عند انعكاسها إلى عدسات الأعين من شبه الظلمة وهو لون السواد وشبه الصبح هو لون البياض، فهما الأصلان للألوان، والمقصود من الاعتبار هو اختلاف ألوان الأصناف من النوع الواحد... واختلاف ألوان الأفراد من الصنف الواحد...)[1]، وقد تضمن السياق الكريم أكثر من **لمحة بلاغية**: فقد آثر مجيء الجملتين ﴿أَنزَلَ﴾ و﴿فَأَخْرَجْنَا﴾ فعلتين، ليدل على أن إنزال الماء من السماء وإخراج الثمرات، متجدداً آنا فآنا. ثم سَلَكَ الالتفات من الغيبة إلى التكلم؛ لأنّ الاسم الظاهر أنسب بمقام الاستدلال على القدرة؛ لأنّه الاسم الجامع لمعاني الصفات، وضمير التكلم أنسب بما فيه امتنان وقدم الاعتبار باختلاف أحوال الثمرات؛ لأنّ في اختلافها سعة تشبه سعة اختلاف الناس في المنافع والمدارك والعقائد، فكأنَّ ألوان الثمار معرض بديع للألوان، فما من نوع من الثمار يماثل لونه لون نوع آخر؛ بل ما من ثمرة واحدة يماثل لونها في أخواتها من النوع

(1) التحرير والتنوير ج 2/ 300 ـ 301.

الواحد، ومن بدائع الخالق ـ عز وجل ـ أنّ التنوع لا يتوقف عند تعدد الألوان؛ بل إنّك تجد التنوع داخلاً في اللون الواحد. وفي سورة فاطر ـ نفسها ـ يعلمنا الخالق المبدع أنّ هناك اختلافاً آخر في ألوان الجماد وبالتحديد في ألوان الجبال، وقد تبدو هذه النقلة عجيبة في ظاهرها ولكنها طبيعية في تناسقها بما قبلها (اختلاف ألوان الثمرات)؛ لأنّ في ألوان الصخور شبهاً عجيباً بألوان الثمرات وتنوعها وتعددها، يقول تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾ [فاطر: 27].

تأمل هذا النسق الفني العظيم للألوان وهذا النسيج العجيب من اختلافها فـ(الجدد البيض) مختلف ألوانها فيما بينها، و(الجدد الحمر) مختلف ألوانها فيما بينها، الاختلاف دقيق متعدد الأبعاد، اختلاف في درجة اللون والتظليل والألوان الأخرى المتمثلة فيه. هذا (الاختلاف) أبدع تناغماً لونياً يهزَّ القلوبَ ويُغني الذوق الجمالي العالي ويحرّض نظرنا إلى الجمال كي يكونَ نظراً تجريدياً، لنراهُ في الصخرةِ كما نراه في الثمرةِ، على الرُّغم من إدراكنا الفرقَ بين طبيعة الصخرة الصّلبة وليونة الثمرة، وعلى بعد ما بين وظيفتيهما في تقدير الإنسان، لكن النظرة الجمالية الفنية ترى الجمال وحده عنصراً مشتركاً بين هذه وتلك. وإذا وازنت بين نظم قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ * وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ﴾ [فاطر: 27 ـ 28]. وبين نظم قوله عز وجل: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا﴾ [فاطر: 27]، وجدت أن النظم الكريم قد آثر الجملة الإسمية في الموضع الأول، أما الموضع الثاني فقد آثر جملة فعلية، لأن (اختلاف ألوان الجبال والحيوان والدال على اختلاف أحوال الإيجاد هو اختلاف دائم لا يتغير، وإنما يحصل مرة واحدة عند الخلق وعند تولد النسل)[1].

أمّا اختلاف ألوان الثمرات، فهو متجدد متغير وحين نصل إلى قوله تعالى كذلك ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ [فاطر: 28].

---

(1) التحرير والتنوير ج 22/ 303.

نتلمس فضيلة أخرى، فالعلماء هم الذين يتدبّرون هذا الكتاب الكريم، ومن ثم يعرفون الله معرفة حقيقية، يعرفونه بآثار صنعته، ويدركونه بآثار قدرته، ويستشعرون حقيقة إبداعه، فيخشونه حقاً ويتقونه حقاً ويعبدونه حقاً. لا بالشعور الغامض الذي يجده القلب أمام روعة الكون، ولكن بالمعرفة الدقيقة والعلم المباشر، والألوان والأصباغ نموذج من بدائع التكوين الأخرى، وبدائع التنسيق التي لا يدركها إلا العلماء، علماً يستشعره القلب ويتحرك به، ويرى به قدرة الله المبدعة للألوان والأصباغ والتكوين والتنسيق في ذلك الكون الجميل. وقد يتضمن النظم القرآني. دعوة صريحة إلى النظر في أوجه التشابه والاختلاف في اللون والحجم والمذاق، وكما في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعۡرُوشَٰتٍ وَغَيۡرَ مَعۡرُوشَٰتٍ وَٱلنَّخۡلَ وَٱلزَّرۡعَ مُخۡتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيۡرَ مُتَشَٰبِهٍۚ﴾ [الأنعام: 141].

وبعبارة موجزة نقول: إنَّ عنصر (اللون): هو عنصر أساسي من الجمال مقصود في تصميم هذا الكون وتنسيقه، ومن قيم هذا الجمال أنّ وظائف الأشياء تؤدى عن طريق جمالها.

وفي القرآن الكريم لفتات عظيمة، ولمحات مضيئة، إلى الجمال عامة، وإلى أحد عناصره خاصة وهو: (اللون).

المبحث الثاني

الألوان ودلالاتها في القرآن الكريم

سنعرض - هنا - إلى كل لون من الألوان التي وردت في القرآن الكريم، بلفظه الصريح أو بما دلَّ عليه، محاولين استقصاء مواضعه وتدبّر دلالة كلّ **موضع والغرض البلاغي منه**.

اللون الأبيض:

إنّ أكثر ألفاظ الألوان استعمالاً في القرآن الكريم هو اللون (الأبيض) فقد ورد هذا اللون في أحد عشر موضعاً، إذ تنوعت السياقات التي تضمنت هذا اللون؛ - فجاء في (خمسة) مواضع وصفاً للون «اليد»، ومنها قوله تعالى: ﴿وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ﴾ [الأعراف: 108]، [الشعراء: 33].

ومعنى النص الكريم (أنّ سيدنا (موسى) عليه السلام أخرج يده من جيب قميصه بعد أنّ أدخلها فيه - كما في سورة النمل (الآية: 12)، وسورة القصص (الآية: 32) فلما أخرجها صارت بيضاء؛ أي: بياضاً من النور، وقد دل على هذا النوع من البياض قوله تعالى: ﴿لِلنَّٰظِرِينَ﴾؛ أي: بياضاً يراه الناظرون رؤية تعجب من بياضها. فالمقصود من ذكر قوله تعالى: ﴿لِلنَّٰظِرِينَ﴾ تتميم معنى البياض، ويبدو أنّ (اللام) في قوله عز وجل: ﴿لِلنَّٰظِرِينَ﴾ تكون بمعنى (عند)، ويكون مفاد قوله عز وجل ﴿بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ﴾ أنّها بيضاء بياضاً مستقراً في أنظار الناظرين)[1].

---

(1) التحرير والتنوير ج 9/ 40، 41.

فكأنَّ لفظ ﴿بَيْضَآءُ﴾ لم يقع في نظم السياق القرآني، ليفيد الإشارة إلى لون محدد بل قصد المقام الدقة في دلالة الوصف، فقال عز وجل ﴿لِلنَّٰظِرِينَ﴾ ليتحقق **الإعجاز والارتياح** والإبهار بذلك اللون، ولتتجسد القيمة الجمالية لهذا اللون عند الناظرين؛ أي: ليس الإعجاب وغيره لكون (اليد) بيضاء ـ فقد يكون بياض اليد عرضاً مَرَضِياً ـ بل لأن بياضها معجب مفاجىء لما عرفه الناس عن (الأبيض)، فهو بياض نوراني خارج عن العادة، **يقول الزمخشري** في تفسيره لقوله تعالى ﴿وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ﴾ فإنْ قلت: بم يتعلق (الناظرين)؟ قلت: يتعلق بـ ﴿بَيْضَآءُ﴾، والمعنى: فإذا هي بيضاء للنظارة، ولا تكون بيضاء للنظارة إلّا إذا كان بياضاً عجيباً خارجاً عن العادة يجتمع الناس للنظر إليه، كما تجتمع النظارة للعجائب[1].

ومثله قوله عز وجل: ﴿وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾ [طه: 22].

وقوله تعالى: ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾ [النمل: 12].

وقوله جل وعلا: ﴿ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾ [القصص: 32].

تأمل النصوص القرآنية الكريمة ـ السابقة ـ **تتلمس الإشارتين الآتيتين:**

(أ) تنوع صيغة الأمر، فقال تعالى: في سورة «طه»؛ ﴿وَٱضْمُمْ﴾: والضم: الإلصاق و(الجناح): العضد وما تحويه إلى الإِبْطِ، أطلق عليه ذلك تشبيهاً بجناح الطائر؛ أي: الصق يدك اليمنى التي كنت ممسكاً بها العصا، وكيفية إلصاقها بجناحه أن تباشر جلد جناحه بأن يدخلها في جيب قميصه حتى تماس بشرة جنبه، يقول أهل التفسير: (جعل الله تعالى تغيّر لون جلد يده عند مماستها جناحه تشريفاً لأكثر جسمه بالفعل والانفعال)[2].

---

(1) الكشاف ج 2/ 102، ينظر ـ أيضاً ـ: تفسير أبي السعود ج 4/ 106.

(2) التحرير والتنوير ج 16/ 208.

وقال تعالى: في **الموضع الثاني** ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ﴾ وقال عز وجل في الموضع الثالث ﴿اَسْلُكْ يَدَكَ﴾ وهذا التنوع في صيغ الأمر، واختلاف الألفاظ، (تفنن في تكرير القصة لتجدد نشاط السامع لها)[1].

(**ب**) الدقة العظيمة في وصف اللون، (إذ قال تعالى في المواضع الثلاثة ﴿تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾ وفي ذلك ما لا يخفى من دفع أيٍّ توهّمٍ قد (يوهّمه سيدنا موسى عليه السلام في نفسه، مرضاً فيفزع. . .)[2].

هذه اليد تصير بيضاءَ (بياضاً عجباً عند الناظرين)؛ ثم تعود إلى لونها المماثل لون بقية البشرة. ومن أعضاء الجسم الآخرى ـ غير اليد ـ التي اقترن اللون الأبيض بوصفها هي: (الوجوه)، وقد اختص مجيئه مقابلاً اللون (الأسود)؛ كما في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ * وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [آل عمران: 106 ـ 107]، فقد قابل النسق الكريم بين من وسم بياض اللون وإشراقه، ومن أهل ظلمة الباطل، ووسم بسواد اللون وكسوفه وكمده، ذكر جمهور المفسرين وجهين لدلالة اللون (الأبيض) واللون (الأسود)، في السياق الكريم.

الأول: قُصِدَ بهما الكناية، فـ(الأبيض)؛ **كناية** عن ظهور بهجة السرور، و(الأسود)؛ **كناية** عن الخيبة والفشل.

الثاني: قصد بهما دلالتهما الحقيقية؛ أي: (البياض والسواد بياض وسواد حقيقيان يوسم بهما المؤمن والكافر يوم القيامة، وهما بياض وسواد خاصان؛ لأنّ هذا من أحوال الآخرة، فلا داعي لصرفه عن الحقيقة)[3]. وعلى كلا الوجهين يتجسد القصد، وهو تهويل أمر هذا اليوم، وتشويق لما يرد بعده من

(1) التحرير والتنوير ج 20/ 112.
(2) دراسات لغوية ص 118.
(3) التحرير والتنوير ص 44.

تفصيل أصحاب الوجوه المبيضة والوجوه المسودة، ترغيباً لفريق وترهيباً لفريق آخر. وإذا أنعمنا النظر في السياق الكريم **تجلت لنا لمحة دلالية مضيئة**؛ فقد قدم عند وصف اليوم ذكر (البياض) الذي هو شعار أهل النعيم، تشريفاً لذلك اليوم بأنه يوم ظهور رحمة الله عز وجل ونعمته ولأن رحمة الله سبقت غضبه، ثم قدم في التفصيل ذكر سمة أهل العذاب ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ...﴾ تعجيلاً بمساءتهم، ثم جاء قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ...﴾؛ لأن في ذكر سمة أهل النعيم عقب وعيد غيرهم بالعقاب، حسرة عليهم، إذ يعلم السامع أن لهم عذاباً عظيماً، في يوم فيه نعيم عظيم، وقد يتضمن السياق القرآن اللون (الأبيض) **كناية** عن العلة، نحو قوله تعالى في سورة يوسف، على لسان سيدنا يعقوب، معبراً عن حزنه العميق عما أصابَ سيدنا يوسف ـ عليهما السلام ـ قال تعالى: ﴿يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ [يوسف: 84] (الأسف: أشد الحزن والحسرة، وقد أضاف لفظ (الأسف) إلى نفسه، و(الألف) بدل من (ياء) الإضافة، والتجانس بين لفظي (الأسف) و(يوسف)، مما يقع مطبوعاً غير مستعمل فيملح ويبدع، ونداء الأسف **مجاز**، نزل الأسف منزلة من يعقل، فيقول له: (أحضر فهذا أو أن حضورِك) يقول **المزمخشري**: (فإن قلت: كيف جاز لنبي أن يبلغ به الحزن ذلك المبلغ؟ قلت: الإنسان مجبول على أن لا يملك نفسه عند الشدائد من الحزن، ولذلك حمد صبره، وأن يضبط نفسه حتى لا يخرج إلى ما لا يحسن)[1].

أما معنى ﴿وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ﴾ فهو: إذا كثر الاستعبار محقت العبرة سواد العين وقلبته إلى بياض كدر، وقد ذكر بعض المفسرين أن (ابيضاض العينين: ضعف البصر؛ وظاهره أنه تبدل لون سوادهما من الهزال، ولذلك عبّر بـ ﴿وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ﴾ دون عميت)[2].

(1) الكشاف ج 2/ 339.
(2) التحرير والتنوير ج 13/ 43.

ويبدو أن ابيضاض العينين: (**كناية** عن عدم الأبصار، وأنَّ الحزنُ هو السبب لعدم الإبصار كما هو الظاهر، فإنْ تَوالي إحساس الحزن على الدّماغ قد أفضى وأن الحزن هو السبب لعدم الأبصار، كما هو الظاهر، فإن توالي إحساس الحزن على الدماغ قد **أفضى** إلى تعطيل عمل عصب الإبصار، على أن البكاء من الحزن أمر جَبلّي فلا يستغرب صدوره من نبي)[1]. وتتلمس في السياق الكريم **لمحة مضيئة** لا تخفى على المتأمل، فقد حمد سيدنا يعقوب عليه السلام وأثني عليه لصبره وقدرته العظيمة على ضبط النفس ثُمَّ نلتقط هذه الإشارة في **الإعجاز العلمي للقرآن**، فإنَّ الطب الحديث يعرف أنَّ الانفعال وشدة البكاء يزيد ضغط العين فتتكون مياه بيضاء هي (الكتاراكت) حتى إذا استوت ذهب البصر وهذه الحال هي التي عاناها يعقوب عليه السلام.

وتتلون السياقات القرآنية المتضمنة للون (الأبيض) لترسم ظلالاً زاهية، مجسدة قيمة جمالية رائعة، منسجمة مع تفرد النظم الكريم بهذا الوصف، وتميزه به، يقول تعالى: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ * بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ [الصافات: 45-46] **قال أهل اللغة**[2]: يقال للزجاجة (كأس)، وتسمى الخمرة نفسها (كأس) ونقل عن «**الأخفش**» قوله: كل (كأس) في القرآن فهي الخمر وكذا في **تفسير ابن عباس** ﴿بِكَأْسٍ﴾: بخمر ﴿مِّن مَّعِينٍ﴾: من شراب معين، وهو الجاري على وجه الأرض الظاهر للعين؛ وصف بما يوصف به (الماء)؛ لأنه يجري في الجنة في أنهار، كما يجري الماء، كما قال تعالى: ﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ﴾ [محمد: 15] وقيل ﴿مِّن مَّعِينٍ﴾: من خمر طاهر. و﴿بَيْضَآءَ﴾ صفة للكأس، و﴿لَذَّةٍ﴾؛ إمَّا أن توصف (اللذة) كأنّها نفس اللذة وعينها، أو هي تأنيث (اللذ)، يقال: لذا الشيء، فهو اللذيذ..[3]، فتأمل كيف حققت لفظة ﴿لَذَّةٍ﴾ دقة التعبير في النظم الكريم، عن

(1) جماليات المضمون والشكل ص 96.

(2) تنوير المقياس من تفسير ابن عباس ص 277.

(3) الكشاف: ج 3/ 534.

شدة الالتذاذ وقد عدل عن الوصف الأصلي لقصد المبالغة، وعدل عن المصدر إلى الاسم لما في المصدر من الاشتقاق. وأنت ترى أن في وصف (الكأس) بـ(البياض) جمالاً في المذاق والمنظر، وجمالاً يزين لذة الشاربين هذا هو المشهد، أمّا الأثر، فإن قوله تعالى: ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ﴾ [الصافات: 47]؛ يوضح لنا أن: لا خمر يصدع الرؤوس، ولا منع ولا انقطاع يذهب بلذة الشراب وبذلك اكتملت الأوصاف الجميلة للشراب. ومثله قوله تعالى: ﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا * قَوَارِيرَا مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا﴾ [الإنسان: 15 ـ 16]. وإنّما وصف الله عز وجل الآنية والأكواب؛ لأنّ ذلك يؤول إلى مدح الشراب، ويدل على نفاسته وشرفه و(الأكواب): جمع كوب، وهو إناء للشرب من غير عروة، وقيل: الأكواب: الأقداح، ﴿قَوَارِيرَا﴾؛ أي: زجاجات، والمعنى: أنّ أصلها من فضة، فاجتمع لها بياض الفضة وصفاء القوارير، فيرى من خارجها ما في داخلها، يقول ابن ناقيا البغدادي: سلكت الشعراء مذاهب من القول في وصف أواني الخمر أعملت فيها مطايا الفكر وأتت فيها بكل مستحسن من الشعر، على أن أحسن ما وصف من هذه الحالة ما ورد به التشبيه في الآية لوقوع المناسبة بين هذا الجنس وبين الماء الذي هو غاية الرقة واللطافة[1].

ومن فنون العبارة البلاغية في النظم الكريم أنَّها لا تصرّح بلفظ اللون الأبيض، ولكن في النسق الكريم ما يشير إليه بدلالته الجمالية على معنى الصفاء والنقاء، يقول تعالى: ﴿وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ * كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ﴾ [الصافات: 48 ـ 49].

﴿وَعِندَهُمْ﴾؛ أي: الجنة، ﴿قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾: من قصرن أبصارهن على أزواجهن لا يمددن طرفاً إلى غيرهم، ولا يبغين بهم بديلاً ﴿عِينٌ﴾: نجل الأعين، جمع عيناء، والنجل: سعة العين؛ أي: (عظام الأعين، حسان الوجوه)[2].

(1) الجمان في تشبيهات القرآن ص 366 ـ 367.
(2) الجمان في تشبيهات القرآن ص 366 ـ 367.

﴿كَأَنَّهُنَّ﴾ في الصفاء ﴿بَيْضٌ مَّكْنُونٌ﴾، فتأمل تشبيه هؤلاء النسوة ببيض النعام المصون من الغبار ونحوه في الصفاء و(البيض) ـ هنا ـ مخلوط بأدنى صفرة، وذلك أحسن ألوان الأبدان[1].

وقد شبّه الشعراء القدامى النساء الحسان بـ(بيض النعام)[2].

فقال امرىء القيس:

وبيضة خدر لا يرام خباؤها تمتعن لهو بها غير معجل

قال تعالى: ﴿وَحُورٌ عِينٌ * كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُوِ ٱلْمَكْنُونِ﴾[3] [الواقعة: 22 ـ 23].

ومعنى الـ﴿وَحُورٌ﴾ شديدات البياض و(العين): عظام الأعين، واسعات الأعين حسانها ﴿ٱللُّؤْلُوِ ٱلْمَكْنُونِ﴾: الدر المصون المخزون في الصدف لم تمسه الأيدي، ولم يغيره الزمان، واختلاف أحوال الاستعمال[4].

فأنت ترى أن السياق الكريم قد آثر الإشارة إلى اللون (الأبيض) في بنية التشبيه، ولم يقصد بـ(الأبيض) مجرداً؛ بل أنَّ صفاءهن وتلألؤهن كصفاء الدر وتلألئه، وقد شبهت الشعراء بالدر، ولكنها لم تأت بهذه الصفة في هذا الاختصار[5].

فمن ذلك قول النابغة:

كمضيئة صدفية غواصئها بهج متى يراها يهل ويسجد

---

(1) تنوير المقباس من تفسير ابن عباس ص 277.

(2) تفسير أبي السعود ج 5/ 269.

(3) ونظير التشبيه السابق في الآية الكريمة قوله تعالى في سورة الطور: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ﴾ [الطور: 24]. وقوله عز وجل: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا﴾ [الإنسان: 19].

(4) التحرير والتنوير ج 23/ 115.

(5) الجمان في تشبيهات القرآن ج 23/ 115.

وقول عمر بن أبي ربيعة:

وهي زهراء مثل لؤلؤة الغوا ص ميزات من جوهر مكنون

ومن مليح الكلام ومختاره قول جرير:

ما استوضح الناس من شيء يروقهم إلا أرى أم نوح فوق ما وصفوا

كأنها مزنة غراء لائحة ودرة ما يواري ضوؤها الصدف

اللون الأحمر:

قيل إنَّ اللون «الأحمر» يدلّ على (النار، والحرارة، والقوة، والعواطف الثائرة)[1].

وتغلب دلالته في الشعر على الحرب، نحو قول عاتكة بنت زيد[2]:

إذا أشرعت فيه الأسنة خاضها إلى الموت حتى يترك الموت أحمرا

واحتفظ بهذه الدلالة في الشعر المعاصر، يقول علي محمود طه المهندس[3]:

يا رب زاهية الأصيل أخالها أفقا أجم ولجة حمراء

وكأنّما طوت السماء وتشرب لهبا وفجرت الصخور دماء

تقول.. نازك الملائكة في تحليلها لهذه الصورة الشعرية:

(وهي صورة جميلة حية إلى درجة العنف ويغلب عليها اللون الأحمر المتمثل في اللهب والدماء في مقابل اللّجة الحمراء)[4].

وتقول العرب الحسن أحمر، كما في بيت بشار بن برد:

---

(1) الموسوعة العلمية ص 228.

(2) ديوان الحماسة ج 1/ 646.

(3) ديوان ليالي الملاح التائه ص 77.

(4) محاضرات في شعر علي محمود طه ـ دراسة ونقد ص 169.

إذا خـــرجـــت تـــقـــنـــعـــي بـــالـــجـــمـــر إن الـــحـــســـن أحـــمـــر

وقيل كنى بالأحمر عن المشقة والشدة؛ أي: من أراد الحسن صبر على أشياء كثيرة يكرهها[1]، ولم يرد لفظ اللون (الأحمر) إلّا في موضع واحد في القرآن الكريم وهو في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾ [فاطر: 27].

ولأن الحديث عن هذا النص الكريم سيأتي في الصفحات التالية، ـ وابتعاداً عن التكرار ـ نكتفي بالإشارة ـ هنا ـ إلى أن اللون (الأحمر) في الآية الكريمة لا يرد به إحدى الدلالات السابقة التي أشار إليها الشعراء، وإنما قصد بـ(الجدد الحمر): الطرق ذا الحجارة الحمراء؛ أي: جاء اللون (الأحمر) بدلالته الأصلية، وليس بدلالة مجازية.

وقد يؤثر السياق الكريم الإشارة إلى (اللون الأحمر)، دون التصريح بلفظه نحو قوله تعالى: ﴿فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ﴾ [الرحمٰن: 37].

فالإنشقاق: انفكاك ما كان على شدة التئام ومعنى قوله تعالى: ﴿فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ﴾: يعني يوم القيامة، إذا تصدعت وانفك بعضها عن بعض، و(الوردة): واحدة الورد ومعنى قوله تعالى: ﴿فَكَانَتْ وَرْدَةً﴾؛ أي: فصارت حمراء كلون الفرس الورد؛ وهو الأبيض الذي يضرب إلى الحمرة أو الصفرة، فيكون في الشتاء أحمر وفي الربيع أصفر وفي اشتداد البرد أغبر، فشبّه السماء يوم القيامة في اختلاف ألوانها بذلك.

ـ وقيل: أراد به وردة النبات وهي حمراء، وقد تختلف ألوانها ولكن الأغلب في ألوانها الحمرة، فتصير السماء كالوردة في الاحمرار ثم تجري ﴿كَٱلدِّهَانِ﴾؛ أي: يتغير لون السماء المعروف أنه أزرق إلى لون أحمر. ويجوز أن يكون وجه الشبه كثرة الشقوق كأوراق الوردة و(الدهان) ـ بكسر الدال ـ وهو

(1) نهاية الأرب ج 1/ 43 ينظر ـ أيضاً ـ: دراسات لغوية في القرآن ص 119.

جمع (الدهن) عند انقضاء الأمر وتناهي المدة؛ أي: هو دردي الزيت[1].

أو عكر الزيت يتلون ألواناً؛ قال الفراء: (شبه تلون السماء بتلون الوردة من الخيل وشبه الوردة باختلاف ألوانها بالدهن واختلاف ألوانه)[2].

فأنت ترى أنّ في قوله تعالى: ﴿كَٱلدِّهَانِ﴾؛ إشارة لا تخفى إلى ما في وجه الشبه من (التموج والاضطراب)؛ أي: تتلون السماء ـ يوم القيامة ـ من الفزع الأكبر كما تتلون الدهان المختلفة، يقول تعالى: ﴿يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ﴾ [المعارج: 8]؛ أي: تكون السماء كالزيت الذي قد أغلي. والعرب تذكر تغيير السماء (في شدة الأمر وصعوبته وما يعهدونه من أحوالهم مثل الجدب والحرب ونحو ذلك)[3].

ألا ترى عظمة التلاؤم بين (حركة) تغيير اللون (الأحمر) ـ في الدلالتين اللتين ذكرهما أهل التفسير ـ وبين حركة الاضطراب والتموج في (الدهان). فجاء ذلك متناسقاً مع رهبة (الساعة) وهول يوم القيامة، وفي السورة نفسها يرسم لنا النظم القرآني مشهداً آخر لا خوف فيه ولا فزع إذ يصف (نسوة أهل الجنة) فيُشَبههن بـ﴿ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾. فيقول تعالى: ﴿كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾ [الرحمٰن: 58]؛ أي: هن على صفاء الياقوت ونقائه وحسنه، ومثل حمرة المرجان وجمال لونه و﴿وَٱلْمَرْجَانُ﴾: الخرز الحُمر، وأصلها: حيوان ينمو في قرار البحر (ذو أصابع دقيقة ينشأ ليناً، ثم يتحجر، ويتلَّون بلون الحمرة، ويتصلب كلما طال مكثه في البحر، فيستخرج منه كالعروق، تتخذ منه حلية)[4].

وقيل: إنَّ ﴿وَٱلْمَرْجَانُ﴾ هو الياقوت الأحمر، وهو أحسن الياقوت.

أما القول بأن ﴿وَٱلْمَرْجَانُ﴾ هو صغار (اللؤلؤ)؛ فغير دقيق بدليل قوله تعالى:

---

(1) ينظر: تنوير المقباس من تفسير ابن عباس ص 337.

(2) معاني القرآن ج 3/ 117.

(3) الجمان في تشبيهات القرآن ص 316.

(4) التحرير والتنوير ج 27/ 250.

﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾ [الرحمٰن: 22]؛ ولو كان القول صحيحاً لما وجدنا هذا التكرار.

وقيل (كالمرجان) في البياض. وقد اختار الشعراء لفظ (الياقوت) للإشارة إلى احمرار اللون[1]

يقول أبو نواس:

كأس إذا انحدرت من حلق شاربها   أخذته حمرتها في العين والخد
والخمر ياقوتة والكأس لؤلؤة   من كف جارية ممشوقة القد

وجه الشبه بالياقوت والمرجان في لون الحمرة؛ أي: حمرة الخدود[2].

اللون الأخضر:

ورد لفظ اللون (الأخضر) في ثمانية مواضع من القرآن الكريم جاءت خمسة منها وصفاً للنبات، ومنها قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا﴾ [الأنعام: 99]؛ في النص الكريم تذكير بنعمة أخرى من نعم الله سبحانه وتعالى الجليلة المنبئة عن كمال قدرته عز وجل وسعة رحمته، **قال أهل التفسير** (المراد من قوله تعالى: ﴿ٱلسَّمَآءِ﴾ اسم لأعلى طبقات الجو حيث تتكون الأمطار؛ أو: السحاب، أو الكلام على تقدير مضاف؛ أي: من جانب السماء. ومعنى قوله عز وجل: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ﴾: فأخرجنا بالماء ما ينبت من أصناف النبت، فإن (النبت): جنس له أنواع كثيرة فمنه زرع، ومنه ما له ساق لينة كـ(القصب) ومنه شجر، وهو ما له ساق غليظة كـ(النخلِ) و(العنبِ)؛ و(النَّجم)[3] و(أب) وهو ما ينبت لاصقاً بالتراب)[4].

---

(1) الجمان في تشبيهات القرآن ص 318.

(2) التحرير والتنوير ج 27/ 270.

(3) النجم: من النبات ليس له ساق. قال تعالى: ﴿وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾ [الرحمٰن: 6].

(4) ينظر: روح المعاني ج 27/ 398.

وهذا التعميم يشير إلى أنها مختلفة الصفات والثمرات والطبائع والخصوصيات والمذاق، وهي كلها نابتة من ماء السماء الذي هو واحد. وذلك آية على عظم القدرة، قال تعالى: ﴿يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلْأُكُلِ﴾ [الرعد: 4].

وقد أشار المفسرون إلى أن الـ(خَضِر): الشيء الذي لونه أخضر، وهو أصل النبات الخارج من الجنة. **يقول الزمخشري** في تفسير لقوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا. . .﴾: (فأخرجنا به: بالماء، ﴿نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ﴾: نبت كل صنف من أصناف الناس؛ يعني: أن السبب واحد وهو الماء والمسببات صنوف مفتنة. . . ﴿فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ﴾: من النبات، ﴿خَضِرًا﴾: شيئاً غضاً أخضر، يقال: (أخضر، وخضر، كأعور وعور)، وهو: ما تشعب من أصل النبات الخارج من الحبة، ﴿نُّخْرِجُ مِنْهُ﴾: من الخضر، ﴿حَبًّا مُّتَرَاكِبًا﴾: وهو السنبل. .)[1].

فأنت ترى في السياق الكريم أكثر من لمحة مضيئة، في **البلاغة والأسلوب والإعجاز العلمي**، فالنظم الكريم تنبيه للناس ليعتبروا بدقائق ما أودعه الله فيها من مختلف القوى التي سببت اختلاف أحوالها، كذلك فيه تفصيل لما أجمل من (الإخراج)؛ أي: تفصيل لمضمون جملة: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ﴾.

وقد جاء النظم بأسلوب (القصر)، لمجيء المسند إليه معرفة ﴿هُوَ﴾، والمسند ـ أيضاً ـ معرفة ﴿ٱلَّذِىٓ﴾، والقصر ـ هنا ـ **أفاد التخصيص**.

كما آثر السياق الكريم أُسلوب **الالتفات**، فعدل عن الغيبة في الضمير ﴿هُوَ﴾ إلى المتكلم في قوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا﴾.

وقد ذكر (بعض المحققين أن في الآية على تقدير عود الضمير إلى (الماء) **معنى بديعاً**، حيث تضمنت الإشارة إلى أنه ـ تعالى ـ أخرج من الماء الحلو

(1) التحرير والتنوير ج 27/ 206.

الأبيض في رأي العين أصنافاً من النبات والثمار مختلفة الطعوم والألوان)[1].

أما الإشارة الإعجازية الأخرى، التي نتلمسها في السياق الكريم، فهي: أن (الخضرة) الدالة على لون النبات أو بعض أجزائه، وخاصة أوراقه، يدركها البصر، وتدل على النماء بل هي رمز الحياة. هذه الإشارة يفهمها علماء الزراعة على أنها حقيقة علمية نبّه إليها الإعجاز المبين فالله قد خلق الشمس، وجعل من طاقتها مصدراً لطاقة الأحياء جميعاً ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ ليسقي به كل بذر وكل نوى، فيخرج وريقات خضراء تستطيع اختزان طاقة الشمس بواسطة المادة (الخضراء)، التي توجد عادة في بعض أجزاء النبات وخاصة الأوراق، يقول تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا﴾، وهذا (الخضراء) كمصنع تتكون فيه تلك المركبات بالاشتراك مع ما يصل إليها من محاليل العناصر الموجودة، ومنها يتوزع على باقي أجزاء النبات بما فيها البذور والثمار، يقول تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: 99].

وقد كشف العلم الحديث عن (حقيقة تدل على قدرة الخالق عز وجل وهي أنَّ مادة ـ الهيموغلوبين ـ اللازمة لتنفس الإنسان والكثير من أنواع الحيوان وثيقة الصلة بالمادة الخضراء في النبات... كما اتضح من البحوث الطبية أنّ هذه المادة عندما يمثلها جسم الإنسان تندمج في خلاياه وتقويها وتساعدها على القضاء على جراثيم الأمراض فتتيح للجسم مقاومة المرض)[2].

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ [الحج: 63].

---

(1) روح المعاني ج 27/ 207.

(2) لمزيد من التفصيل ينظر: علوم الزراعة في القرآن الكريم ص 78 وما بعدها.

في النص تذكير آخر بنعم الله على الناس، بمناسبة ما جرى من قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ [الحج: 61].

قال بعض المفسرين: (المقصود؛ التعريض بشكر الله على نعمه وأن لا يعبدوا غيره ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ [الحج: 62].

وفي ذلك كله إدماج الاستدلال على انفراده بالخلق والتدبير، فهو الرب الحق المستحق للعبادة.

والخطاب لكل من تصلح منه الرؤية؛ لأنَّ المرئي مشهور والاستفهام في السياق الكريم إنكاري: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ وقد تصدرت (همزة) الاستفهام أداة النفي (لم) لتخلصه إلى الزمن الماضي، وناسب ذلك مجيء متعلقه ﴿أَنزَلَ﴾ بصيغة الماضي.

و(لم يراع فيهما معنى تجدد ذلك؛ لأن **موقع انكار** عدم العلم بذلك، كونه أمراً متقرراً ماضياً لا يدعي جهله)[1].

ومعنى قوله تعالى: ﴿فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً﴾؛ أي: تصير الأرض مخضرة أنعم النظر في السياق الكريم تجد؛ أن النظم قد عدل عن صيغة الماضي (فأصبحت) إلى لفظ المضارع ﴿فَتُصْبِحُ﴾ وذلك لنكتة نبهنا إليها **الزمخشري**، بقوله: (فإن قلت: هلا قيل (فأصبحت) ولم صرف إلى لفظ المضارع؟

قلت: لنكتة فيه، وهي إفادة بقاء أثر المطر زماناً بعد زمان، كما نقول: (أنعم عليَّ فلان عام كذا فأروح وأغدو شاكراً له) ولو قلت: (فرحت وغدوت) لم يقع ذلك الموقع.

(1) الكشاف جـ 3/ 21.

فإن قلت: فما له رفع ولم ينصب جواباً للاستفهام؟

قلت: لو نصب لأعطى ما هو عكس الغرض؛ لأن معناه إثبات الاخضرار فينقلب بالنصب إلى نفي الاخضرار، مثاله أن تقول لصاحبك: (ألم تر أني أنعمت عليك فتشكر)، إن نصبته فأنت نافٍ لشكره شاك تفريطه فيه وإنْ رفعته فأنت مثبت للشكر، وهذا وأمثاله مما يجب أن يرغب فيه ممَّن أقسم بالعلم في علم الإعراب وتوقير أهله)[1].

ثم تأمل قوله تعالى: ﴿مُخۡضَرَّةًۗ﴾؛ التي صار لونها أخضر كما يقال (أصفر الثمر، وأحمر) وصيغة (أُفعل) مما يصاغ للاتصاف بالألوان وقد آثر التعبير عن النبات الذي هو مقتضى الشكر لما فيه من إقامة أقوات الناس والحيوان بذكر لونه الأخضر.

وفي ذلك لفتة جمالية رائعة؛ لأن اللون (الأخضر) بطبيعته ممتع للأبصار وهو ـ أيضاً ـ موجب شكر على ما خلق الله من جمال المخلوقات في المرأى.

كما يقول تعالى: ﴿وَلَكُمۡ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسۡرَحُونَ﴾ [النحل: 6] وهناك لطيفة أخرى في **تناسق لفظي** (الماء) واللون (الأخضر) ـ في الموضعين السابقين ـ وهو لون النبات، وكأنَّ السياق يُصرّح بهذه القيمة الجمالية، فالخالق ـ عز وجل ـ قد خصّ النبات بالماء (لأنّه أكثر الكائنات الحية تفاعلاً مع الماء واعتماداً عليه، إذ هو غذاؤه وحياته لا شيء له غيره، به يحيا وبفقده يذبل ويموت).

وهذا من رحمة الله ولطفه فـ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾.

ثم أليس (الماء) و(الخضرة) ـ أي النبات ـ هما سر ديمومة حياة الإنسان والحيوان، إلى أن يأذن الله بنهايتها؟

(1) التحرير والتنوير ج 17/ 318.

وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا﴾ [يس: 80] ذهب كثير من المفسرين إلى أن المراد بالشجر في الآية الكريمة: (هو (المَرْخُ) و(العَفَار) فهما شجران يقتدح بأغصانهما، يؤخذ غصن من هذا وغصن من الآخر بمقدار المسواك، وهما خضراوان يقطر منهما الماء فيسحق (المرخ) على (العفار) فتنقدح النار)(1).

وقد وصف (الشجر) وهو اسم جمع (شجرة)، وهو مؤنث بـ(الأخضر) بدون تأنيث مراعاة للفظ الموصوف بخلوه من علامة التأنيث، وهذه لغة أهل نجد.

وأما أهل الحجاز، فيقولون (شجر خضراء) على اعتبار معنى الجمع، وقد جاء القرآن الكريم بهما في قوله تعالى: ﴿لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ * فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ * فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ﴾ [الواقعة: 52 ـ 54].

ونعود إلى نظم الآية الكريمة السابقة فنجد أنه تصدر باسم الموصول ﴿ٱلَّذِىٓ﴾، وقد جاء بدلاً مطابقاً غير معطوف، وفي ذلك تأكيد للآية السابقة: (﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس: 79]، وفي النسق الكريم ما يحرض الذهن فتتشوق نفس السامع لتلقي ما يرد بعده فيفطن بما في هذا الخلق، من الغرابة، إذ هو إبعاد الضد، وهو في نهاية الحرارة من ضده وهو الرطوبة، وهذا هو وصف الشجرة بالأخضر)(2).

ومعنى ذلك أنه ليس المراد من لفظ (الأخضر) دلالته على اللون، وإنما المراد لازمه، وهو الرطوبة؛ لأن الشجر أخضر اللون ما دام حياً، فإذا جفَّ وزالت منه الحياة استحال لونه إلى الغبرة، فصارت (الخضرة) كناية عن رطوبة النبت وحياته وقد استعمل الشعراء هذه الدلالة؛ يقول ذو الرمة:

ولما تمنت تأكل الرُّم لم تدع ذوابلَ مما يجمعون ولا خضرا

(1) ينظر: الكشاف ج 3/ 332، التحرير والتنوير ج 23/ 77.

(2) الماء والحياة بين العلم والقرآن ص 20.

ونعود إلى تركيب الآية الكريمة فنجدها قد ختمت بجملة اسمية مصدرة بـ (إذا) الدالة على المفاجأة لتشير إلى عجب إلهام الله البشر لاستعمال الاقتداح بالشجر الأخضر واهتدائهم إلى خاصيته، وقد جاء المسند فعلاً مضارعاً (توقدون) لإفادة تكرار ذلك واستمراره..

وإذا قرأنا قوله تعالى: «في سورة الواقعة»: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ * ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ * نَحْنُ جَعَلْنَـٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَـٰعًا لِّلْمُقْوِينَ * فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الواقعة: 71 ـ 74]، لا نجد صعوبة في إدراك سر ترتيب النار على الخضرة، أو في تبين عظمة الآية **وبلاغتها وإعجازها**؛ فمفتاح معناها وصف الشجر بالأخضر وترتيب النار على خضرة الشجر، ومن يعرف أثر الخضرة في نمو الشجر وفي بناء كيانه الخشبي على الأخص، وفي اختزانه ما في ذلك الكيان من طاقة تبدو ناراً عند الاستيقاد، من يعرف ذلك يعرف المقصود من الآية.

يقول د. **مصطفى الجويني** (تشير الآية إلى حقيقة علمية تعرف بالتمثيل الضوئي؛ ففي كل وريقة شجر خلايا تمتص الضوء فتحول الماء وثاني أوكسيد الكاربون إلى مادة خضراء هي: (الكلوروفيل)، فإذا جفّت الوريقة واشتعلت انطلقت الطاقة الكامنة فيها، أما إذا امتصَّ أو أكل الحيوان وريقة الشجرة ساعدت الطاقة الكامنة في وريقة الشجرة على نمو خلايا الحيوان)[1].

فسبحان الخالق العظيم، وقد يرد اللون (الأخضر) وصفاً لغير النبات، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِىٍّ حِسَانٍ﴾ [الرحمٰن: 76].

فالآية الكريمة في مقام تعداد النعم، فاقتضى المقام مجيء قوله عز وجل: ﴿مُتَّكِـِٔينَ﴾ حالاً من قوله تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ﴾ [الرحمٰن: 46] من دون عطف[2].

(1) جماليات المضمون والشكل في الإعجاز القرآني ص 102. ولمزيد من الفائدة ينظر: الإسلام في عصر العلم ص 418.

(2) التحرير والتنوير ج 27/ 274.

وقال **الزمخشري**: (﴿مُتَّكِئِينَ﴾: نصب على الاختصاص[1].

ومعنى ﴿مُتَّكِئِينَ﴾: جالسين في الجنة.

وقد ذكر **جمهور المفسرين** أنّ (الرفرف): رياض الجنة من قولهم: رَفَّ النبات يرفّ؛ أي: صار غضاً نَضِراً، وقيل: (الرفرف): المجالس، وقيل: الوسائد.

وقيل: إنَّ كل ثوب عريض عند العرب فهو (رفرف).

قال ابن مقبل:

وإنّا لنازلون تغشي نعالنا ... سواقط من أصناف ربط ورفرف

أو: (الرفرف): ضرب من البسط، وهو اسم جمع (رفرفة)، وهي ما يبسط على الفراش لينام عليه، وهي تنسج على شبه الرياض، ويغلب عليها اللون (الأخضر)، ولذلك شبه ذو الرمة الرياض بالبسط العبقرية في قوله:

حتى كأن رياض القف ألبسها ... من وشي عَبْقَر تجليل وتنجيد

فوصفها في الآية بأنها ﴿خُضْرٍ﴾ وصف كاشف لاستحضار اللون الأخضر؛ لأنه يسر الناظرين)[2].

ويبدو أنَّ السياق القرآني الكريم في إيثاره اللون (الأخضر) للمفرش (المجالس) أو (الوسائد) أو للملبس (الثياب)؛ فيه إشارة إلى مراعاة الذوق العربي، وفي ذلك ما لا يخفى من الترغيب، فالثياب الخضر كانت عزيزة عند العرب، يقول النابغة الذبياني:

يصونون أجساداً قديماً نعيمها ... بخالصة الأردان خضر المناكب

وقيل: الثياب الخضر لباس الملوك والكبرياء.

---

(1) الكشاف ج 4/ 50.

(2) الكشاف ج 4/ 50.

يقول الشيخ الطاهر بن عاشور: (الثياب المصبوغة بالألوان الثابتة التي لا يزيلها الغسل نادرة لقلة الأصباغ الثابتة ولا تكاد تتعدى (الأخضر) و(الأحمر) ـ ويسمى (الأرجواني) وأما المتداول من أصباغ الثياب عند العرب فهو ما صبغ بالورس والزعفران فيكون (أصفر)، وما عدا ذلك فإنَّ لونه لون ما ينسج من صوف الغنم (أبيض) أو (أسود) أو من وبر أو كتان أبيض أو كان شعر المعز أسود)[1].

ومثله قوله تعالى: ﴿عَٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ﴾ [الإنسان: 21].

أما معنى قوله تعالى: ﴿عَٰلِيَهُمْ﴾ فقد ذكر أهل التفسير: (من جعله ظرفاً فهو بمنزلة قولك: (فوقهم ثياب سندس) ومن جعله حالاً فهو بمنزلة قولك: (تعلوهم ثياب سندس).

أي: يكون ﴿عَٰلِيَهُمْ﴾ (حال مفرد لـ(الأبرار)؛ أي: تلك حالة أهل الجنة أو حال من الضمير في ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ﴾، أو في ﴿حَسِبْتَهُمْ﴾؛ أي: يطوف عليهم ولدان عالياً للمطوف عليهم ثياب أو: حسبتهم لؤلؤاً (عالياً لهم ثياب)[2].

ويبدو أن معنى القول الكريم: تعلوهم الثياب فيلبسونها، وإضافة ﴿ثِيَابُ﴾ إلى ﴿سُندُسٍ﴾ بيانية، مثل: خاتم ذهب، وثوب خز؛ أي: منه.

و(السندس): الديباج الرقيق؛ أي: ضرب من الحرير المنسوج بدقة.

والظاهر ـ كما يقول الشيخ الطاهر بن عاشور ـ[3] أنه لا يكون إلا أخضر اللون، لقول يزيد بن حذاق العبدي يصف مرعى فرسه:

وداويتها حتى شَتَتْ حَبَشية كأن عليها سُندساً وسُدُوساً

أي: في أرض شديدة الخضرة كلون الحبشي.

(1) التحرير والتنوير ج 27/ 275.
(2) الكشاف ج 4/ 199.
(3) التحرير والتنوير ج 29/ 399.

ويقول أبو تمام يرثي محمد بن حميد النبهاني الطوسي:

تردّى ثيابَ الموت حمراً فما أتى لها الليل إلّا وهي من سُندس خُضر

ولأنّ اللون (الأخضر) أمتع للعين، فما كان (السندس) يصبغ إلّا باللون الأخضر، ولذلك اختاره الملوك[1].

أما معنى (الإستبرق)؛ فهو ما غلظ من ثياب الحرير، وقيل الديباج الصفيق الغليظ الحسن، ولا يراد به الغلظ في السلك، إنما يراد به الثخانة في النسج.

ويبدو أن معنى السياق الكريم هو: أن أهل الجنة فوقهم ثياب من (الصنفين) ـ سندس وإستبرق ـ يلبسون هذا وذاك جمعاً بين محاسن كليهما، وهما أفخر لباس أهل الملوك وأهل الثروة.

قال ابن عباس رضي الله عنهما (أما رأيت الرجل عليه ثياب والذي يعلوها أفضلها)[2].

ويؤثر القرآن الكريم في وصف جمال الجنة وروعتها باللون الأخضر الضارب إلى السواد، فيقول تعالى: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ * فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * مُدْهَآمَّتَانِ﴾ [الرحمٰن: 62 ـ 64].

و(الدهمة): السواد، وإدهام الزرع؛ إذا علاه السواد رَيّاً، ومنه (الدهماء) ومعنى النص الكريم: ومن دون الجنتين اللتين ذكرناهما لمن خاف مقام ربه جنتان أخريان دون الجنتين الأولين، فإنهما أقرب إلى قصره ومجالسه في قصره ليتضاعف له السرور بالتنقل في جنتين على ما هو معروف من طبع البشر.

ومعنى (دون) ـ هنا ـ مكان قريب من الشيء وبالإضافة إلى غيره مما ليس مثل قربه وهو ظرف مكان، وإنّما كان التنقل من جنة إلى جنة أخرى أنفع لأنه أبعد من الملل.

---

(1) روح المعاني ج 27/ 280.

(2) تنوير المقباس من تفسير ابن عباس ص 370.

والنصُّ الكريم قد وصف ما في هاتين الجنتين بما يقارب ما وصف به ما في الجنتين الأوليين وصفاً سلك فيه مسلك الإطناب ـ أيضاً ـ لبيان حسنهما ترغيباً في السعي لنيلهما بتقوى الله ـ تعالى ـ فذلك موجب تكرير بعض الأوصاف أو ما يقارب من التكرير.

وقيل يجوز أن تكون (دون) بمعنى (أفعل)؛ أي: لنزول المرتبة)[1].

أي: لمن خاف مقام ربه جنتان دون الجنتين الأوليين في الفضل، ويصف الله عز وجل (الجنتين) أنهما ﴿مُدْهَآمَّتَانِ﴾.

أي: من خضرتهما قد أسودتا من الري، وكل نبت أخضر فتمام خضرته أن يضرب إلى السواد، وهو على أتم ما يكون من الحسن.

فكأنَّ في وصف الجنتين بالسواد (مبالغة في شدة خضرة أشجارهما حتى تكونا بالتفاف أشجارهما وقوة خضرتهما كالسوداوين؛ فالشجر إذا كان ريان اشتدت خضرة أوراقه حتى تقرب من السواد.

وقد أخذ هذا المعنى أبو تمام وركّب عليه فقال:

يا صَاحِبَيَّ تقصيا نَظَريكُما ... تريا وجوهَ الأرضِ كيف تصوّر
تريا نهاراً مشمساً قد شابه ... زَهْرُ الرُّبى فكأنّما هو مقمر[2]

ولعل من المفيد أن نشير ـ هنا ـ إلى قوله عز وجل: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ قد وقع معترضاً بين ﴿جَنَّتَانِ﴾ وصفاتها اعتراضاً للإزدياد من تكرير التقرير والتوبيخ لمن حرموا من تلك الجنات.

(1) روح المعاني ج 27/ 281.
(2) التحرير والتنوير ج 27/ 272.

اللون الأزرق:

ورد اللون الأزرق مرة واحدة ـ وجاء بصيغة الجمع ـ في القرآن الكريم وذلك في قوله عز وجل: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِۚ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٖ زُرْقٗا﴾ [طه: 102].

السياق الكريم يصف حال ﴿ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ ـ وهم (المشركون) و(الكفرة) ـ يوم القيامة ـ فجاء قوله عز وجل: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِۚ﴾: بأسلوب البناء للمجهول لما فيه من إيجاز وتحريض للمتلقي في التفكير بالفاعل المحذوف.

أي: يوم ينفخ نافخ ـ وهو المَلَكُ الموكل بذلك.

وقد ذكر بعض المفسرين أنَّ معنى قوله تعالى: ﴿ٱلصُّورِۚ﴾: (قرن عظيم يجعل في داخله سداد لبعض فضائه، فإذا نفخ فيه النافخ بقوة خرج منه صوت قوي، وقد اتخذ للإعلام بالاجتماع للحرب.

و(المجرمون): هم المشركون والكفرة.

أما (الزرق) ـ جمع زرقة ـ فهو الذي لونه الزرقة؛ وهو لون كلون السماء أثر الغروب و﴿زُرْقٗا﴾؛ حال كونهم زرق الأبدان وذلك غاية في التشويه، ولا تزرق الأبدان إلا من مكابدة الشدائد وجفوف رطوبتها)[1].

فـ ﴿زُرْقٗا﴾ ـ بهذه ـ الدلالة بمنزلة قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٞ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٞۚ﴾.

وقيل: المراد بـ﴿زُرْقٗا﴾: لون عيونهم، فقد نقل عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه: (زرق العيون، فهو وصف للشيء بصفة جزئه، كما يقال (غلام أكحل، والكحل من صفات العين)[2].

---

(1) التحرير والتنوير ج 16/ 304.

(2) روح المعاني ج 16/ 135.

وقيل: آثر النظم الكريم لفظ ﴿زُرْقًا﴾؛ لأن زرقة العين مكروهة عند العرب والأظهر على هذا أن المعنى يراد شدة زرقة العين لأنه لون غير معتاد.

يقول بشار بن برد:

وللخيل على أمواله عِلل زرقُ العيون عليها أوجه سودُ

ويفسر لنا الآلوسي سبب بغض العرب للعيون الزرقاء، فيقول: إنَّ الروم الذين كانوا أشدّ أعدائهم عداوة زرق العيون، لذلك قالوا في وصف العدو؛ (أسود الكبد، أصهب السبال، أزرق العين)(1).

وكانوا يهجون بالزرقة، كما يقو الشاعر:

لقد زرقت عيناك يا ابن مكعبر ألا كل ظبي من اللؤم أزرق

وقيل: المراد بـ ﴿زُرْقًا﴾ العمي؛ لأن العين إذا ذهب نورها أزرقَّ ناظرها ووجه الجمع عليه ظاهر، أو المراد (عطاشاً)؛ لأنَّ العطش الشديد يغير لون العين فيجعله كالأزرق، ويلائم هذا التفسير قوله تعالى: ﴿وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا﴾ [مريم: 86].

ويبدو لنا ـ والله أعلم ـ أنَّ السياق الكريم قد آثر لفظ ﴿زُرْقًا﴾ لتحقيق أكثر من إشارة؛ منها أنها لون جلودهم التي تغطي أجسادهم، لتقبيح منظرهم؛ لأنها كلون من أصابه حرق النار، وهذا التفسير يلائم قوله تعالى: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ [النساء: 56].

ثم تبرز لنا لمحة من الإعجاز العلمي في القرآن الكريم، فقد أثبتت البحوث الطبية، مؤخراً أنَّ مراكز الإحساس بالألم تكون في الجلد.

وقد تعني ﴿زُرْقًا﴾: العمى الذي أصاب عيونهم من هول ذلك اليوم، فصاروا ﴿يَتَخَٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ﴾ [طه: 103]، والرعب يملأ صدورهم ﴿وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ

(1) روح المعاني ج 16/ 135 ـ 136.

﴿فَلَا تَسۡمَعُ إِلَّا هَمۡسٗا﴾ [طه: 108]، وإذا علمنا أنَّ العرب كانت تكره دلالة هذا اللون أدركنا أنّ ثقل هذا المشهد الرهيب جاء مناسباً لما يحملون من وزر يوم الحساب.

يظلون: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهِۖ وَسَآءَ لَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ حِمۡلٗا﴾ [طه: 101].

محشورين: ﴿يَتَخَٰفَتُونَ بَيۡنَهُمۡ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا عَشۡرٗا﴾ [طه: 103].

اللون الأسود:

قال المتخصصون في الألوان، إنّ اللونَ (الأسود) يدل على الخيبة والخسارة والظلام والحزن[1].

وقد يضاف لفظ (أسود) إلى القلب والعين، فسواد القلب: حبته، كذلك: أسوده، وسوداؤه، وسويداوه وقد يقصد بـ(سواد العين): النور، كقول جرير في رثاء قيس بن ضرار.

أظن انهمال الدمع ليس بمنتهٍ عن العين حتى يضمحل سوادها

وقيل: سواد الناس؛ أي: عوامهم...[2]

وقد ورد لفظ (الأسود) في سبعة مواضع من القرآن الكريم، جاء في ثلاثة منها مقابلاً اللون (الأبيض)، ومنها قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ تَبۡيَضُّ وُجُوهٞ وَتَسۡوَدُّ وُجُوهٞۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسۡوَدَّتۡ وُجُوهُهُمۡ أَكَفَرۡتُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ * وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبۡيَضَّتۡ وُجُوهُهُمۡ فَفِي رَحۡمَةِ ٱللَّهِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [آل عمران: 106 ـ 107].

وقد عرضنا دراسة النص الكريم في موضوع سابق[3].

وقال تعالى: ﴿وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلۡخَيۡطُ ٱلۡأَبۡيَضُ مِنَ ٱلۡخَيۡطِ ٱلۡأَسۡوَدِ مِنَ

---

(1) ينظر: الموسوعة العلمية ص 228.
(2) مختار الصحاح (سود).
(3) ينظر: ص 22 من هذه الدراسة.

﴿ٱلْفَجْرِ﴾ [البقرة: 187]، فـ﴿ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ﴾: هو أول ما يبدو من الفجر المعترض في الأفق كالخيط الممدود، و﴿ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ﴾: ما يمتد معه من غبش الليل، شُبّها بخيطين (أبيض) و(أسود) وفي قوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلْفَجْرِ﴾؛ بيان للخيط الأبيض، وقرينة دالة على أن اللونين أريد بذكرهما التشبيه، وهذا ما ذهب إليه الزمخشري، إذ يقول: (فإذا قلت: أهذا من باب الاستعارة أم من باب التشبيه؟

قلت: قوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلْفَجْرِ﴾ أخرجه من الاستعارة، كما أن قولك: (رأيت أسداً) مجاز، فإذا زدت (من فلان) رجع تشبيهاً، فإن قلت: فَلِمَ زيد ﴿مِنَ ٱلْفَجْرِ﴾ حتى كان تشبيهاً، وهلاّ اقتصر على الاستعارة التي هي أبلغ من التشبيه وأدخل في الفصاحة؟

قلت: لأن من **شرط المستعار** أن يدل عليه الحال أو الكلام، ولو لم يذكر ﴿مِنَ ٱلْفَجْرِ﴾ لم نعلم أي الخيطين **استعارة**، فزيد ﴿مِنَ ٱلْفَجْرِ﴾ فكان تشبيهاً بليغاً وخرج أن يكون **استعارة**)[1].

وذهب **الشيخ الطاهر بن عاشور** إلى أنّ (القرآن ما أطلقه إلّا لكونه كالنص في المعنى المراد في اللغة الفصحى دون إرادة التشبيه؛ لأنّه ليس بتشبيه واضح)[2].

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ [النحل: 58].

وقال عز وجل: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ [الزخرف: 17]، ﴿بُشِّرَ﴾ بمعنى: أخبر بولادتها[3].

فقد آثر النصُّ القرآني ـ في الموضعين ـ التعبير بـ﴿بُشِّرَ﴾ بدلاً من (أخبر)؛

---

(1) الكشاف ج 1/ 339.
(2) التحرير والتنوير ج 2/ 183.
(3) تفسير البيضاوي ج 3/ 101.

لأنَّ (ازدياد المولود نعمة على الوالد لما يترقبه من التأنّس به ومزاحه والانتفاع بخدمته، وإعانته عند الاحتياج إليه، ولما فيه من تكثير نسل القبيلة الموجب عزتها، وآصرة الصهر.

ثم إن هذا مع كونه بشارة في نفس الأمر، فالتعبير به يفيد تعريضاً بالتهكم بهم إذ يعدون البشارة مصيبة وذلك من تحريفهم الحقائق، والتعريض من أقسام الكلام)[1]

أما ﴿ظَلَّ﴾ فهو بمعنى (صار)؛ أي: من أخوات «كان» التي تدل على إنصاف فاعلها بحاجة لازمة، كما يستعمل (بات) و(أصبح) و(أمسى) بمعنى الصيرورة[2].

فمعنى ﴿ظَلَّ وَجْهُهُۥ﴾: صار ودام النهار كله ﴿مُسْوَدًّا﴾؛ أي: مغتمّاً مربد الوجه من الكآبة والحياء من الناس. فيحتمل أن يكون قوله تعالى: ﴿وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا﴾ قد أفاد الكناية عن الأغتمام والكآبة أو أن (أسوداد الوجه: مستعمل في لون الوجه الكئيب إذ ترهقه غبر، فشبهت بالسواد مبالغة)[3].

و(الكظيم): الغضبان المملوء حنقاً؛ أي: صار حنقاً على امرأته، وهذا من جاهليتهم الجهلاء وظلمهم، إذ يعاملون المرأة معاملة من لو كانت ولادة الذكور باختيارها. فأنت ترى أنَّ النص الكريم قد جمع بين وصفين، أسوداد الوجه لمن يبشر بالأنثى، وكونه كظيماً حزيناً ساكناً سكون اليأس ليكبر عن تناهي حالة اليأس؛ حيث عم الحزن جوانب نفسه وظهر على وجهه فهو على أسوأ حال في باطنه وظاهره وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ . . .﴾ [الزمر: 60]. فيجوز أن يكون اسوداد الوجوه، حقيقة؛ جعله الله علامة لهم وجعل بقية الناس بخلافهم.

---

(1) التحرير والتنوير ج 14/ 184.
(2) الكشاف ج 2/ 414.
(3) التحرير والتنوير ج 14/ 185.

وقد جعل الله أسوداد الوجوه علامة على سوء المصير، كما جعل بياضها علامة على حسن المصير. ويجوز أن يكون بياض الوجوه مستعملاً في النضرة والبهجة، قال تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ * وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ * تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ﴾ [القيامة: 22 ـ 25].

فالنص الكريم يجمل حال الناس يوم القيامة بين أهل سعادة (الوجوه الناضرة)، وأهل شقاوة (الوجوه الباسرة)، وتنكير ﴿وُجُوهٌ﴾ **للتنويع والتقسيم**، وسوغ الابتداء بـ﴿وُجُوهٌ﴾ وهي نكرة لإرادة التفصيل والتقسيم **لمقابلته** بقوله: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ﴾.

و(الوجوه) الموصوفة بـ(الناضرة) هي الحسنة من أثر النعمة والفرح، وقيل مضيئة بيض يعلوها النور.

و(الوجوه) الموصوفة بـ(الباسرة) هي الكالحة العابسة من قسوة العذاب.

﴿تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ﴾؛ أي: تعلم وتستيقن أنه يعمل بها داهية عظيمة تفقر ظهورها؛ أي: تكسرها(1).

فأنت ترى ـ عزيزي القارئ ـ أنَّ النظمَ الكريم سلك **أسلوب المقابلة** لبيان حال الوجوه الواجبة للأحوال السارة على الضد من حال الوجوه الظانة للفاقرة.

ومثله قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ * ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ * وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ﴾ [عبس: 38 ـ 40].

فقد سلك النظم ـ أيضاً ـ أُسلوب (المقابلة) بين حال المؤمنين وحال المشركين في (المسفرة): ذات الإسفار، وهو: النور أو الضياء، يقال: أسفر الصبح إذا ظهر ضوء الشمس في أفق الفجر؛ أي: وجوه متهدّية فرحاً وعليها أثر

(1) التحرير والتنوير ج 14/ 185.

(2) التحرير والتنوير ج 30/ 352، 356.

النعيم، فهي مشرقة مضيئة، وفي قوله تعالى: ﴿ضَاحِكَةٌ﴾ **كناية** عن السرور، ﴿مُّسْتَبْشِرَةٌ﴾: فرحة، وحققت (السين) و(التاء): المبالغة. وفي إسناد الضحكة الاستبشار إلى الوجوه، **مجاز عقلي**؛ لأن الوجوه محل ظهور الضحك والاستبشار فهو من إسناد الفعل إلى مكانه. ويجوز أن تكون (الوجوه) **كناية** عن الذوات؛ أي: أراد بالوجوه أصحاب الوجوه، وهم أهل الجنة، أما أهل النار من المشركين والكفار، فإن وجوههم ﴿غَبَرَةٌ﴾؛ أي: معفرة بالغبار إهانة، ومن أثر الكبوات، أو: عليها سوء وكآبة للهم، و﴿تَرْهَقُهَا﴾ تغلب عليها وتعلوها ﴿قَتَرَةٌ﴾[1].

وإذا تأملت النص الكريم، أدركت هذا التنويع بين الفئتين، وفي قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ﴾ زيادة في تشهير حالهم الفظيع للسامعين، وحقق ضمير الفصل ﴿هُمُ﴾ التوكيد وقد اتبع ﴿ٱلْكَفَرَةُ﴾ بوصف ﴿ٱلْفَجَرَةُ﴾ بدون عاطف، ليفيد أنهم جمعوا بين الكفر والفجور وليدل على أنهم جمعوا بين فساد الاعتقاد وفساد العمل.

وبعد استقراء المواضع السابقة[2] وتدبّر دلالاتها، نستطيع أَنْ نقول: إنّ اللون (الأسود) إذا صرح بذكره ـ في النظم الكريم ـ أو أشير إليه، سواء بدلالته الحقيقة؛ (أي: الدلالة الأصلية للون الأسود)، أو **بدلالته المجازية (كناية** الخيبة والاغتمام والكآبة) أو كان تشبيهاً بليغاً، فإنَّه مقترن بلفظ (وجوه)، لبيان سوء حال المشركين والكفار في الدنيا والآخرة. لذلك يؤثر السياق الكريم مقابلته باللون الأبيض ـ صراحة أو ضمناً ـ لما في هذا الأسلوب من **فائدة** في إبراز قوة **(الضدين)**.

ولعل من المفيد أن نتوقف ـ هنا ـ لنشير إلى أنَّ بعض البلاغيين قد أطلق

---

(1) المصدر السابق ج 30/ 137، 138.

(2) لمزيد من الفائدة، نذكّر بهذه المواضع في القرآن الكريم: آل عمران/ 106، 107، النحل/ 58، الزخرف/ 17، الزمر/ 60.

على استعمال الألوان المقابلة في سياق واحد، **مصطلح (التدبيج)**[1]؛ و(التدبيج) في اللغة، من دبج المطر الأرض بألوان النبات إذا زينها. أما في الاستعمال **البلاغي**، فيعد التدبيج من **صور الطباق** لما بين الألوان من التقابل وهو (أن يذكر المتكلم ألواناً بقصد الكناية أو التورية[2]، في سياق وصف أو مدح أو هجاء، أو نسب، أو غير ذلك من الفنون، أو لبيان فائدة الوصف بها وقد سماه ابن سنان الخفاجي)[3].

واختار له ابن الإصبع مصطلح (التدبيج)[4]، ويرد على وجهين:

الوجه الأول: أن يكون وارداً في المدح، وهذا كقول أبي تمام:

تردّى ثياب الموت حمراً فما أتى لها الليل إلّا وهي من سندس خضر

يعني: أنه لبس ثياب الدنيا وهي حمر من الدماء في الجهاد، ثم استشهد بعد ذلك فما أتى الليل إلا وقد خرجت روحه من الدنيا وفارق الحياة، وصار إلى الجنة لابساً ثياب السندس من عبقري الجنان، فكنى عن حال القتال بالثياب

(1) ينظر: بديع القرآن ص 351 تحرير التحبير ص 351، الإيضاح في علوم البلاغة ج 5/ 13 شرح التلخيص ـ للبابرتي ص 616.

(2) يقول د. محمد عبد المنعم خفاجي (الذي يقصد به الكناية أو التورية، هو الكلام المشتمل على تلك الألوان والمراد بالألوان ما فوق الواحد وجمع «الألوان» لقصد التورية لا يقتضي أن يكون في كل لون منها تورية، كما توهم بعضهم فالحريري في قوله فَمُذازور المحبوب الأصفر واغبرّ العيش الأخضر، أسودّ يومي الأبيض، وابيضّ فودي الأسود حتى رثى لي العدو الأزرق فياحبذا الموت الأحمر) قد جمع بين عدة الألوان وكل تلك الألوان في كلامه كناية. فـ(خضرة العيش): كناية عن طيبه و(اغبراره): كناية عن ضيقه، أما اللون (الأصفر): فإن فيه تورية، المعنى القريب المحبوب هو الإنسان الذي له صفرة، والمعنى البعيد هو الذهب الذي هو المراد ـ هنا ـ فجمع الألوان لا يوجب أن تكون كلها كنايات أو توريات بل يجوز جمعها على أن بعضها كناية وبعضها تورية. ينظر: هامش الإيضاح في علوم البلاغة: (13 ـ 14).

(3) سرّ الفصاحة: 231.

(4) بديع القرآن: 242.

الحمر، وكنّى عن دخول الجنة بالثياب الخضر، ففيه من الحسن ما فيه، ومن ذلك ما قاله بعض الشعراء بمدح أقوال بالكرم وشرف الخصائل، كقول ابن حبوس:

إن ترد على حالهم عن يقين فألقهم يوم نائل أو نزال
تلق بيض الوجوه سود مثار النفع خضر الأكناف حمر النصال

الوجه الثاني: أن يكون وارداً في الذم، ومثاله ما قاله بعض الشعراء:

وأحببت من حبّها الباخلين حتى رمقت ابن سليم سعيداً
إذا سيل عرفاً كسا وجهُهُ ثياباً من اللؤم بيضاً وسوداً

فإن فن التدبيج له في **البلاغة موقع عظيم**، وهو يكسب الكلام **بلاغة** ويزيده حلاوة، وقد ورد في القرآن الكريم من فن (التدبيج) قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾ [فاطر: 27].

و﴿جُدَدٌۢ﴾: جمع (جدة) ـ بضم الجيم ـ وهي الطريقة والخطة في الشيء تكون واضحة فيه يقال للخطة السوداء على ظهر الحمار (جدة) و(الجدد) البيض التي في الجبال، هي: ما كانت صخوراً بيضاء مثل (المروة) أو كانت تقرب من البياض، و(الجدد) هي؛ ذات الحجارة الحمراء في الجبال. ﴿وَغَرَابِيبُ﴾؛ جمع غربيب، وهو اسم للشيء، والأسود الحالك سواده ولا تعرف له مادة مشتق هو منها، ويحتمل أن يكون مأخوذ من لفظ (الغراب) لشهرته بالسواد، و﴿سُودٌ﴾ جمع (أسود) وهو الذي لونه السواد. ولأن (الغربيب) يدل على أشد من معنى أسود، فكان مقتضى الظاهر أن يكون ﴿وَغَرَابِيبُ﴾ متأخراً عن ﴿سُودٌ﴾؛ لأن الغالب أنهم يقولون: أسود غربيب، كما يقولون: (أبيض ناصع)، (أصفر فاقع) و(أحمر قان) ولا يقولون: غربيب أسود، قال بعض المفسرين: (إنما خولف ذلك للرعاية على الفواصل المبنية على «الواو» و«الياء» الساكنتين)[1].

(1) التحرير والتنوير 22/ 302.

ويبدو أنَّ النظم الكريم آثر هذا النسق الرائع من (تدبيج) الألوان ولك أن توازن بين قوله تعالى: ﴿وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾، ثم تأمل هذه المقابلة في الألوان: لأن الجادة البيضاء هي الطريق المعروفة التي كثر السير عليها جداً، وهي أوضح الطرق وأبينها ولهذا قيل: (ركب بهم المحجة البيضاء) ودونها الحمراء. ثُمَّ السوداء كأنها في الخفاء والالتباس ضد البيضاء في الظهور والوضوح.

ولمّا كانت هذه الألوان الثلاثة في الظهور للعين طرفين وواسطة بينهما، فالطرف الأعلى في الظهور (البياض) والطرف الأدنى في الخفاء (السواد) والأحمر بينهما على وضع الألوان في التركيب[1].

أيها القارئ الكريم، تأمل هذا النسق اللوني الرائع، فالطرق البيض، قد ذكرت أولاً ثم الحمر ثم السود. يقول بعض العلماء المعاصرين الأشياء الصفراء تبدو أكبر الأشياء إطلاقاً يليها البيضاء فالحمراء، فالخضراء، ثم الزرقاء، وأخيراً السوداء التي تبدو أصغر منها في أي لون آخر[2].

فما أعظم هذا **التقسيم البديع وما** أصدق هذه الملاءمة والتناسق بين العبارة ومناسبتها فهي (مسوقة للاعتداد بالنعم على ما هدت إليه في طلب المصالح والمنافع وتجنب المعاطب والمهالك الدنيوية والآخروية)[1].

ونقرأ قوله تعالى: ﴿مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا﴾ الذي يكشف عمّا في الألوان من الوسائل بين مركباتها، وهي لا تدخل تحت الحصر، فعبّر عنها بعبارة موجزة، فاكتفى بذكر الاختلاف عن تعدد الألوان، فنلتقط إشارة من **الإعجاز العلمي** عن سبب (اختلاف ألوانها) الذي يعود إلى المواد التي تكوّن صخور هذه الجبال، إذ إنّ (الجبال البيضاء تتكون أساساً من الطباشير والحجر والجيري، والجبال السوداء بها المنجنيز والفحم، والحمراء بها الحديد وغير ذلك من الجبال النارية

---

(1) بديع القرآن: 234.

(2) الموسوعة العلمية في الرسم والتأويل: 399.

التي تكوّن الجرانيت والبازلت والتي تحتوي على عروق الحديد والنحاس والذهب وغير ذلك من معادن تؤدي إلى تعدد ألوان الجبال وأنواعها)[1]. **فتبارك الله، وسبحان الله الخالق المصور.**

اللون الأصفر:

يتميز اللون الأصفر بأنه أكثر الألوان وضوحاً حين تجمعها تحت ضوء واحد، وذهب بعض المعاصرين إلى أن (الذين يفضلون اللون الأصفر، أحد شخصين على طرفي نقيض، إمّا أن يكون شخصاً يتمتع بمقدرة ذهنية كبيرة، وإمّا أنْ يكون متَخَلِّفاً ذهنياً)[2].

وقد ورد اللون الأصفر في خمسة مواضع في القرآن الكريم ـ اثنين منها في وصف (الحيوان).

أما الموضع الأول فهو قوله تعالى: ﴿قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَاۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ﴾ [البقرة: 69].

أمر الله سبحانه وتعالى قوم موسى عليه السلام أن يذبحوا بقرة، فسألوه عن لونها، فقال سيدنا موسى عليه السلام إن الله عز وجل ﴿يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا﴾.

و(الفقوع): أشد ما يكون من الصفرة وأنصعه، يقال: فقع لونها: إذا خلصت صفرته.

والنصوع يعم جميع الألوان، وهو خلوص اللون من أن يخالطه لون، فيقال في التوكيد: أصفر فاقع، كما يقال: أسود حالك أو حانك أو غريب، وأبيض يقق ولهق، وأحمر قاني، وذريحي، وأخضر ناضر ومدهام.

(1) الكون والإعجاز العلمي للقرآن 409. ينظر ـ أيضاً ـ: علوم الزراعة في القرآن ص 56.
(2) في سبيل موسوعة علمية ص 399.

وقد أضيف (اللون) إلى ضمير (البقرة)، في قوله تعالى: ﴿مَا لَوْنُهَا﴾: للدلالة على أنه اللون الأصفر، فكان وصفه بفاقع وصفاً حقيقياً.

فأنت ترى أنَّ النظم الكريم قد عدل عن القول (صفراء فاقعة) إلى ﴿صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا﴾؛ ليحصل وصفها بالفقوع مرتين؛ إذ وصف اللون بالفقوع، ثم لما كان اللون مضافاً لضمير (الصفراء) كان ما يجري عليه من الأوصاف جارياً على سببه.

يقول **الزمخشري** في تفسيره للنص الكريم: (فإن قلت: ﴿فَاقِعٌ﴾) ـ ههنا ـ واقع خبراً عن اللون فلم يقع توكيداً لصفراء؟

قلت: لم يقع خبراً عن (اللون) وإنما وقع توكيداً لـ﴿صَفْرَآءُ﴾، إلّا أنه ارتفع (اللون) به ارتفاع الفاعل، و(اللون) من سببها وملتبس بها، فلم يكن فرق بين (صفراء فاقعة) و﴿صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا﴾. فإن قلت: فهلا قيل (صفراء فاقعة)؟ وأي فائدة في ذكر اللون؟

قلت: الفائدة فيه التوكيد؛ لأن (اللون) اسم للهيأة وهي (الصفرة)، فكأنه قيل: (شديد الصفرة وصفرتها) فهو من قولك: جدّ جدُّه، وجنونك مجنون[(1)].

ومعنى قوله تعالى: ﴿تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ﴾: تدخل رؤيتها مسرة في النفوس؛ أي: تدخل عليهم السرور إذا نظروا إليها إعجاباً واستحساناً للونها و(السرور): (لذة في القلب عند حصول نقع أو توقعة)[(2)].

وقيل إنَّ (المسرة) لذة نفسية تنشأ عن الإحساس بالملائم أو عن اعتقاد حصوله ومما يوجبها التعجب من الشيء أو الإعجاب به[(3)].

ولأن هذا اللون ـ أي الأصفر ـ من أجمل ألوان البقر، أُسند الفعل ﴿تَسُرُّ﴾

(1) الكشاف ج 1/ 287.
(2) الكشاف ج 1/ 287.
(3) التحرير والتنوير ج 1/ 553.

إلى (البقرة) لا إلى ضمير (اللون)؛ أي: لم يقل (يسر الناظرين)؛ فلا يقتضي أن لون (الأصفر) مما يسر الناظرين مطلقاً.

ثم إن قوله تعالى: ﴿ٱلنَّٰظِرِينَ﴾ إشارة إلى أن المسرة تدخل عليهم عند النظر إليها من باب استفادة التعليل من التعليق بالمشتق)[1].

وفي ضوء هذا العرض الموجز نستبعد الرأي القائل إنَّ صفراء ـ هنا ـ معناه سوداء فقد تبيّن لنا في موضوع (اللون) الأسود أَنَّ هذا اللون لا يأتي إلا للدلالة على سوء الحال والكآبة والاغتمام والظلمة، فكيف (يسر الناظرين)؟

ثم لا تصف العرب (الأسود) بالفقوع، وإنما تقول: أسود حالك أو حانك أو غريب.

كذلك نصحح ما يخطر في أذهان بعض الناس من اقتران اللون (الأصفر) بدلالة (الغيرة) أو (الأنانية) أو (الأثرة)، أو (التخلف الذهني). أما الموضوع الثاني الذي اقترن فيه اللون (الأصفر) بوصف (حيوان)، فهو قوله عز وجل: ﴿إِنَّهَا تَرْمِى بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ * كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ﴾ [المرسلات: 32 ـ 33] و(الشرر): اسم جمع (شررة): وهي القطعة المشتعلة من دقيق الحطب، يدفعها لهب النار في الهواء من شدة التهاب النار، (القَصْر): وهو واحد القصور من البنيان العالي، والتعريف فيه للجنس؛ أي: كالقصور؛ لأنه شبه به جمع؛ أي: كل شررة كالقصر من القصور في عظم حجمه، تتطاير على الكافرين من كل جهة، وقد شبه الشعراء القدامى (الإبل) بالقصور، فقال عنترة:

فوقفت فيها ناقتي وكأنَّها فدن لأقضي حاجة المتلوم

و(الفدن): القصر، يقول أهل المعاجم[2] (جاؤوا بجمال كأنها أفدان)؛ أي: قصور.

---

(1) التحرير والتنوير ج 1/ 554.

(2) أساس البلاغة (فدن).

قال القطامي:

فلما أنْ جرّى سمنٌ عليها كما بطَّنت بالفَدَن السِّياعا

قال الأخطل:

كأنَّه برج روميّ يشيده لز بجصّ وآجر وأحجار

وقيل (القصر): وهو الغليظ من الشجر، الواحدة (قصرة)، نحو: جمرة وجمر و(الجمالات) بكسر «الجيم» جمع جمال، أو ﴿جِمَلَتٌ﴾: جمع جمل، وهي اسم جمع طائفة من الجمال؛ أي: تشبه طوائف من الجمال متوزعة فرقاً، وهذا تشبيه مركب لأنه تشبيه في الهيئة والحجم مع اللون، والحركة. و(الصفرة): لون الشرر، إذا ابتعد عن لهيب ناره وقيل: (صفر) سود تضرب إلى الصفرة، نحو قول عمران بن حطان:

دعتهم بأعلى صوتها ورمتهم بمثل الجمال الصفر نزاعة الشوى[1]

وقال الفراء لا ترى أسود من الإبل إلّا وهو مشرب صفرة، ولذلك سمت العرب سود الإبل صفراء[2].

وقال صاحب «الجمان في تشبيهات القرآن»[3].

(يقال للإبل السود التي تضرب إلى الصفرة؛ (هي إبل صفر)، قال الأعشى:

تلك خيلي منه وتلك ركابي هُنَّ صُفْر أولادها كالزبيب

وإذا تأملنا نظم السياق الكريم **تلمسنا الإشارات الأسلوبية والبلاغية الآتية**:

الإشارة الأولى: أفاد تصدر ﴿إن﴾ للنص الكريم تأكيد الخبر للاهتمام به، لأنّهم حينئذ لا يشكون في ذلك سواء رأوه أو أخبروا به.

(1) الكشاف ج 4/ 204.
(2) معاني القرآن ج 3/ 225.
(3) الجمان في تشبيهات القرآن ص 373.

الإشارة الثانية: ضمير «الهاء» المتصل بـ(إنَّ) في قوله تعالى: ﴿إِنَّهَا﴾ عائد إلى جهنم التي دل عليها قوله تعالى: ﴿مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ [المرسلات: 29] كما يقال: للذي يساق إلى القتل وقد رأى رجلاً بيده سيف فيضطرب لرؤيته فيقال له: إنه الجلاد، وإجراء تلك الأوصاف في الإخْبَار عنها لزيادة الترويع والتهويل، فإن كانوا يرون ذلك الشرر لقربهم منه، فوصفه لهم لتأكيد الترويع والتهويل بتظاهر السمع مع الرؤية. وإن كانوا على بعد منه فالوصف للكشف عن حالة القطيعة)[1].

وفي ذلك ما لا يخفى من تأكيد التخويف من النار، والتعظيم لشأنها من سطوتها.

الإشارة الثالثة: اقتضى مقام السياق الكريم **إيثار التشبيه المركب**؛ لأنه تشبيه في هيئة الحجم مع لونه وحركته، فقد شبه (الشرر) ـ في هيئته وحجمه ـ بالقصور ـ علواً وارتفاعاً وعظماً ثم شبه بالجمال لبيان اللون والحركة ثم جاء التشبيه بغير أداة العطف (وهو أوكد في صفة الموصوف، وأبلغ في نعته من التشبيه المعطوف)[2].

الإشارة الرابعة: دقة التشبيه القرآني، فاللون المقصود في السياق الكريم، هو (الأصفر) الضارب إلى (السواد) والعرب ـ كما قلنا ـ تسمي السود من الإبل صفراً لأنه يشوب سوادها شيء من الصفرة، و(الشرر) إذا تطاير فسقط وفيه بقية من لون النار يكون أشبه شيء بالإبل السود لما يشوبها من الصفرة[3].

فنحن إذا اقتربنا من نار في بداية اشتعالها بدت صفرة لهيبها مختلطة بسواد، يقول الطيبي: (إنّ الله تعالى شبه الشرارة أولاً حين تنفصل من النار بالقصر في

(1) التحرير والتنوير ج 29/ 437.
(2) المصدر السابق.
(3) الجمان في تشبيهات القرآن ص 374.

العظم، وثانياً حين تأخذ في الارتفاع والانبساط، فتنشق عن أعداد لا نهاية لها بالجمالات في التفرق واللون والعظم والثقل)[1].

الإشارة الخامسة: يبدو إنّ (الأسود) إذا جاء في النظم الكريم دلّ في الغالب على القبح وسوء الحال ـ وقد ذكرنا ذلك في موضعه، أما إذا اختلط بالألوان الأخرى، وبخاصة اللون (الأخضر) ـ كما جاء في قوله تعالى ـ في وصف الجنتين: ﴿مُدْهَآمَّتَانِ﴾: الخضرة الضاربة إلى السواد أو اقتران باللون (الأصفر): ﴿جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ﴾: الأصفر الضارب إلى السواد فإنه يأتي رمزاً جمالياً يحسن الصورة المقصودة. وقد جاء اللون (الأصفر) لوصف النبات في ثلاثة مواضع من القرآن الكريم ومنها قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ * وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ * فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ * وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ يَكْفُرُونَ﴾ [الروم: 48 ـ 51].

ومعنى النص الكريم هو أن الكفر في نفوس هؤلاء الكافرين الظالمين، إذ يعاودهم بأدنى سبب، فهو إذا أصابتهم النعمة استبشروا ولم يشكروا، وإذا أصابتهم البأساء أسرعوا إلى الكفر، فصور لكفرهم أعجب صورة؛ وهي إظهارهم إياها بحدثان ما كانوا مستبشرين فيه إذ يكون الزرع أخضر، والأمل في الارتزاق منه قريباً، فيصيبه إعصار فيحترق فيضجون من ذلك وتكون حالهم حالة من يكفر بالله وتجري على أفواههم عبارات السخط والقنوط.

قال الزمخشري في تفسيره النص الكريم: (ذمهم الله ـ تعالى ـ بأنه إذا حبس عنهم القطر قنطوا من رحمته وضربوا أذقانهم على صدورهم مبلسين، فإذا أصابهم برحمته ورزقهم المطر استبشروا وابتهجوا، فإذا أرسل ريحاً فضرب زرعهم

(1) ينظر: التبيان في علم المعاني ص 206.

بالصفار ضجوا وكفروا بنعمة الله. فهم في جميع هذه الأحوال على الصفة المذمومة، كان عليهم أن يتوكلوا على الله وفضله فقنطوا وأن يشكروا نعمته ويحمدوه عليها، فلم يزيدوا على الفرح والاستبشار وأن يصبروا على بلائه فكفروا. . .)[1]. وجاء قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا﴾.

مُصدّراً بـ«اللام» الموطئة للقسم الداخلة على إنْ الشرطية، أمَّا «الفاء» في قوله تعالى: ﴿فَرَأَوْهُ﴾، فهي فصيحة، و«الهاء» ضمير منصوب عائد إلى ﴿ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: فرأوا أثر رحمة الله؛ لأن رحمة الله (الغيث)، وأثرها (الزرع) و(الكلأ) وقوله عز وجل: ﴿لَّظَلُّوا﴾؛ جواب قسم سد مسد الجوابين؛ أي: جواب القسم وجواب لشرط و(ظل) بمعنى (صار)، وقد أفادت دلالة الفعل على التصيير مع الإخبار عنه بالمضارع ﴿يَكْفُرُونَ﴾؛ تصوير مبادرتهم إلى الكفر، ثم استمرارهم عليه، وفي ذلك إشارة واضحة إلى أن الكفر يغلب على أحوالهم، وأعلم أن إيثار الأفعال الثلاثة (أرسل) (رأى) (ظل) بصيغة الماضي؛ لأن وقوعها في سياق الشرط يمحضها للاستقبال، فأوثرت صيغة الماضي لأنّها أخف، والمتكلم مخير في اجتلاب أي الصيغتين مع الشرط. .[2].

أما لفظ: ﴿مُصْفَرًّا﴾؛ فهو اسم مقتض الوصف بمعناه الحال؛ أي: فرأوه يصير أصفر وقد قال تعالى: ﴿فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا﴾، ولم يكن القول (فرأوه أصفر)؛ لأن التعبير بلفظ: ﴿مُصْفَرًّا﴾ يفيد تصوير حدثان الاصفرار عليه، وهذه الإشارة تفهم من قول بعض المفسرين: (قال: ﴿مُصْفَرًّا﴾ لأن تلك صفرة حادثة)[3].

بمعنى أنّه (متغير بعد خضرته)[4].

ومثله قوله تعالى: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ

---

(1) الكشاف ج 3/ 226.
(2) التحرير والتنوير ج 21/ 125 «بتصرف».
(3) الكشاف ج 3/ 227.
(4) تنوير المقباس من تفسير ابن عباس ص 254.

فِي ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا وَفِي ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ [الحديد: 20] شبه النص الكريم حال الدنيا وسرعة تقضيها مع قلة جدواها بنبات أنبته الغيث، فاستوى واكتمل وأعجب به (الكفار) الجاحدون لنعمة الله فيما رزقهم من الغيث والنبات، فهاج وأصفر وصار حطاماً عقوبة على جحودهم.

أما لفظ ﴿ٱلْكُفَّارَ﴾؛ فقد ذهب جمع من المفسرين إلى أنه جمع (الكافر) بالله؛ لأن الكفار أشد إعجاباً بالدنيا من غيرهم، أو لأنهم قصروا إعجابهم على الأعمال ذات الغايات الدنيا دون الأعمال الدينية، وقيل: إنَّ ﴿ٱلْكُفَّارَ﴾: الزّراع، جمع كافر وهو الزارع لأنه يكفر الزريعه بتراب الأرض و(الكفر) ـ بفتح الكاف ـ الستر؛ أي: ستر الزريعة[1].

وإنما أوثر هذا الاسم ـ هنا ـ وقد قال تعالى في سورة (الفتح): ﴿يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ﴾ [الفتح: 29]، قصداً للتنبيه على الكفار الذين هم الكافرون بالله؛ لأنّهم أشدُّ إعجاباً بمتاع الدنيا إذ لا أمل لهم في شيء بعده.

و(النبات): اسم مصدر لـ(نبت)، قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا﴾ [نوح: 17]، وقد اطلق على (النابت) من إطلاق المصدر على الفاعل.

و﴿يَهِيجُ﴾ من (الهياج)، وهو الغلظ مقاربة اليبس؛ لأن مادة (الهياج) تدل على الاضطراب والثوران، وسميت الحرب (الهيجاء).

وحقيقة (الهياج): ثورة الإنسان أو الحيوان، ويستعار الهياج لشدة الشيء من غير الحيوان يقال: (هاجت ريح)، ومنه (هياج الزرع)؛ لأن الزرع تطول سوقه وسنابله فيتم جفافه، فإذا تحرك بمرور الريح عليه صار له حفيف وخشخشة سواء في ذلك الحب والكلأ[2].

---

(1) الكشاف ج 3/ 227.

(2) التحرير والتنوير ج 23/ 378.

والزرع إذا غلظ يكون لحركته صوت فكأنه هائج، وذلك إذا قارب اليبس.

و(الحطام) ـ بضم الحاء ـ ما حطم؛ أي: تحطم؛ أي: تحطم وتكسر قطعاً بعد يبسه، والمعنى: أنه يبلغ من اليبس إلى حد أن يتحطم ويتكسر بحك بعضه بعضاً وتساقطه وكسر الريح إياه، فَأَنعم النظر في النسق الكريم تجده قد آثر في فن التشبيه (التمثيلي) مع كونه تشبيه هيأة مركبة بهيأة مثلها، وهو صالح للتفريق ومقابلة أجزاء الهيأة المشبه بها: فشبه أول أطوار الحياة وإقبالها: بالنبات عقب المطر؛ وشبه الناس المنتفعين: بإقبال الدنيا بناس زراع؛ وشبه اكتمال أحوال الدنيا وقوة الكهولة: بهياج الزرع؛ وشبه ابتداء الشيخوخة ثم الهرم وابتداء ضعف القدرة على العمل: بأصفرار الزرع وتهيئته للفناء؛ وشبه زوال ما كان للمرء من قوة ومال: بتحطم الزرع المصفر[1].

ثُمَّ تأمل إيثاره لـ﴿ثُمَّ﴾ ـ دون سواها من أدوات العطف ـ لأنها تفيد التراخي الرتبي، فأصفرار النبات أعظم دلالة على التهيؤ للزوال، فقال تعالى ﴿ثُمَّ يَهِيجُ﴾؛ كذلك قوله عز وجل: ﴿ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًاۖ﴾، أما جملة ﴿فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرًّا﴾، فقد جاء العطف بـ(الفاء)؛ لأنَّ اصفرار النبت مقارب ليبسه.

أما **الموضع الثالث**؛ فهو: قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا ثُمَّ يَجۡعَلُهُۥ حُطَٰمًاۚ﴾ [الزمر: 21]، ويبدو أن لفظ ﴿مُصۡفَرًّا﴾ في المواضع الثلاثة السابقة ـ لا يراد به دلالته على اللون المجرد (الأصفر)، وإنما يراد به الإشارة إلى أن النبات ابتعد عن الحياة وقارب اليبس ليتحطم ويفنى، ويرى علماء الزراعة المعاصرون أنّ (ما جاء في الآية الكريمة عن دورة حياة النباتات الحولية عموماً تطابق تماماً ما يحدث في طور نمو النبات، فإنّه يكون (أخضر) ويكبر ويقرب النضج يزداد نموه ويأخذ لونه في التحول إلى (الاصفرار) ثم بعد ذلك يأخذ في الجفاف حتى يكون من السهل الكسر. . .)[2].

(1) المصدر السابق ج 27/ 266.
(2) ينظر الإسلام في عصر العلم ص 416.

الفصل الثاني

الضوء والنور في القرآن الكريم

يتضمَّن هذا الفصل ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: «الضوء»

المبحث الثاني: «مصادر الضوء»

المبحث الثالث: «النور»

المبحث الأول
«الضوء»(1)

لم يفرِّق العرب في المأثور من كلامهم بين (الضوء) و(النور)، فقد أطلق الجمهور كل واحد من (الضوء) و(النور) على الآخر، وهو المشهور عندهم، وذهب المحققون من أهل اللغة إلى أنَّ: (النور) منشأ (الضياء) ومبدؤه، كما يشير إليه استعمال العرب؛ حيث أضافوا (الضياء) إليه؛ أي: إلى (النور) كقول **ورقة ابن نوفل** (ويظهر في البلاد ضياء نور) **وقال العباس** رضي الله عنه مخاطباً **الرسول محمد** ﷺ:

وأنت لما ظَهَرْتَ أشرقتِ الأر ... ضُ وضَاءَتْ بنورِك الأفق

وقد أطلق الله سبحانه وتعالى على رسوله ﷺ (النور)، دون (الضياء) في قوله تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ﴾ [المائدة: 15].

قال الزجاج (النور): (محمد) ﷺ.

وقال عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا * وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾ [الأحزاب: 45 ـ 46]، وذكر أهل الحكمة أنَّ (الضوءَ)؛ ما يكون للشيء من ذاته؛ كالشمس و(النور): ما يكون من غيره كما للقمر،

(1) لم يرد لفظ (الضوء) في ـ القرآن الكريم ـ وإنما ورد لفظ (ضياء) ـ اسم نكرة ـ والفعل (أضاء) أضاءت، يضيء، وقيل (الضياء): أقوى من (الضوء)، وقيل: إن الضياء جمع (ضوء)، وهذا الرأي بعيد عن الدقة؛ لأن (شعاع الشمس مركب من ألوان النور السبعة التي يراها الناس في قوس السحاب، فهو سبعة أضواء لا ضوء واحد فهذا التعبير من مفردات القرآن الكثيرة التي كشف لنا ترقي العلوم الطبيعية والفلكية من المعنى، منها ما كان العرب يجهلونها في عصر التنزيل.

واستعمل (الضوء) لما فيه حرارة حقيقية كالذي في (الشمس) أو مجازاً كالذي ذكر فيما أوتيه موسى عليه السلام مما فيه من شدة ومزيد كلفة، يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً﴾ [الأنبياء: 48]، ومنه (الصبر ضياء)، ومعلوم أنه كاسمه، و(النور) لما ليس كذلك كالذي في القمر أما أهل التفسير فقد تنوعت آراؤهم، **يقول الزمخشري**[1] في تفسيره قوله تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ [البقرة: 17].

(النار): جوهر لطيف مضيء حار محرق، و(النور): ضوؤها وضوء كل نير وهو نقيض (الظلمة)، واشتقاقها من (نار، ينور) إذا نفر؛ لأن فيها حركة واضطراباً، و(النور) مشتق منها. و(الإضاءة): فرط الإنارة، ومصداق ذلك قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا﴾ [يونس: 5]، ويفهم من كلام الزمخشري أن (اشتقاق النور مبني على المناسبة اللغوية بين (النار) و(النور) أما الحركة والاضطراب فإنَّها فيها أولاً وبالذات وفي نورها)[2].

وذكر شهاب الدين محمود الآلوسي البغدادي أنَّ الذي يميل إليه القلب أنَّ (الضياء) يطلق على (النور) القوي، وعلى شعاع النور المنبسط؛ فهو بالمعنى الأول أقوى وبالمعنى الثاني أدنى. ولكل مقام مقال ولكل مرئية عبارة، ولا حجر على البليغ في اختيار أحد الأمرين في بعض المقامات لنكتة اعتبرها ومناسبة لاحظها، وآية الشمس لا تدل على أنَّ (الضياء) أقوى من (النور) أينما وقع، فالله نور السمٰوات والأرض، ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [النحل: 60]، وشاع إطلاق (النور) على الذوات المجردة دون (الضوء)، ولعل ذلك لأن انسياق العرضية منه إلى الذهن أسرع من انسياقها من (النور إليه)[3].

ويفهم من كلام الألوسي أنَّ المقام وحده هو الذي يؤثِرُ استعمال (الضوء)

(1) هامش الكشاف ج 1/ 197.
(2) روح المعاني ج 1/ 166.
(3) الكشاف ج 1/ 1.

على (النور) أو العكس، حسب النكتة التي يقتضيها أو المناسبة المقصودة.

أما الشيخ الطاهر بن عاشور، فكان حديثه عن (الضوء) و(النور) أكثر شمولاً وإحاطة بالواقع اللغوي لاستعمال اللفظتين، إذ يقول:

(الضياء: النور الساطع القوي لأنه يضيء للرائي، وهو اسم مشتق من (الضوء). وهو (النور) الذي يوضح الأشياء، فـ(الضياء) أقوى من (الضوء). و(النور): الشعاع وهو مشتق من اسم النار، وهو أعم من (الضياء)؛ يصدق على الشعاع الضعيف والشعاع القوي.

فضياء الشمس نور، ونور القمر ليس بضياء)[1].

ومع اقتناعنا بقول الآلوسي أنّ (لكل مقام مقالاً ولكل مرثية عبارة.. وأنَّ المقام (يقتضي) اختيار أحد الأمرين لنكتة اعتبرها ومناسبة لاحظها) ولكن يجدر بنا في هذا المبحث أن نستقريء النصوص الكريمة التي ورد فيها لفظ (الضياء) أو (النور)، ونتدبر معانيها، ونتقرب من بعض أسرارها البلاغية والأسلوبية ونستشرف إشاراتها في الإعجاز العلمي للقرآن، لكي نتمكن من الإجابة عن السؤال الآتي: ما الفرق بين (الضوء) و(النور) بدلالة الاستعمال القرآني للمفردتين؟

وقد ورد لفظ (الضياء) في القرآن الكريم ـ بصيغة المصدر والفعل ـ في ستة مواضع جاء في بعضها بدلالته الحسية، ومنها قوله تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ [البقرة: 17].

أثر الإعجاز القرآني في هذا المقام أسلوب التشبيه في سياق المثل، أما (التشبيه) فقد قصد به إلحاق تلك الأحوال المعقولة بالأشياء المحسوسة؛ لأن النفس إلى المحسوس أميل، ولأن للإجمال بعد التفصيل وقعاً في نفوس السامعين، ومعلوم أن من فائدة التشبيه إظهار إمكان المشبه، وتنظير غرائبه بمثلها

(1) هامش الكشاف ج 1/ 197 ـ 198.

في المشبه به فقد ذكر المشبه ـ هنا ـ ﴿مَثَلُهُمْ﴾؛ أي: حالهم، وأداة التشبيه ﴿مَثَلُ﴾ والمشبه به ﴿ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾.

وفي ذلك تقريب لما في أحوالهم في الدين من التضاد والتخالف بين ظاهر جميل وباطن قبيح بصفة حال عجيبة من أحوال العالم.

لأن المراد تشبيهه حال المنافقين في ظهور أثر الإيمان ونوره مع تعقبه بالضلالة ودوامه، بحال من استوقد ناراً. . .

أما **سياق المثل**؛ فهو (مَنْزَع بديع من منازع البلغاء لا يبلغ إلى محاسنه غير خاصتهم، وقد اختص لفظ المثل بإطلاقه على الحال الغريبة الشأن؛ لأنها بحيث تمثل للناس وتوضح وتشبه سواء شبهت ـ كما هنا ـ أم لم تشبه كما في قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ﴾ [الرعد: 35].

فالمثل قول عزيز غريب ليس من متعارف الأقوال العامة؛ بل هو من أقوال فُحول البلاغة. .)[1].

ولأن لضرب الأمثال شأناً عظيماً في إبراز خفيات المعاني ورفع أستار محجبات الدقائق، ولأنه يؤثر في القلوب ما لا يؤثره وصف الشيء في نفسه، ولأن المثل تشبيه الشيء الخفي بالجلي فيتأكد الوقوف على ماهيته؛ وذلك هو النهاية في الإيضاح، ولهذا ـ وغيره ـ ضرب الله عز وجل الأمثال في كتابه العزيز وقد وصف **الزمخشري** (المثل) بالغرابة ـ أي: العزة ـ في تفسيره «الكشاف»، إذ يقول (لما جاء بحقيقة صفتهم عقبها بضرب المثل زيادة في الكشف وتتميماً للبيان، ولضرب العرب الأمثال واستحضار العلماء المثل والنظائر شأن ليس بالخفي في إبراز خبيات المعاني ورفع الأستار عن الحقائق، حتى تريك المتخيل في صورة المحقق، والمتوهم في معرض المتيقن والغائب كأنه مشاهد، وفيه تبكيت للخصم الألد، وقمع لسورة الجامع الأبي، ولأمر ما أكثر الله في كتابه

(1) التحرير والتنوير ج 1/ 302.

المبين وفي سائر كتبه وأمثاله، وفشت في كلام رسول الله ﷺ وكلام الأنبياء والحكماء.

ولم يضربوا مثلاً ولا رأوه أهلاً للتيسير ولا جديراً بالتداول والقبول إلّا قولاً فيه غرابة من بعض الوجوه، ومن ثم حوفظ عليه وحمي من التغيير)[1].

وتدبر هذا المثل فقد قصد به توبيخ المنافقين؛ أي: لبيان ما يظهرونه من (الإيمان) مع ما يبطنونه من النفاق لا يثبت لهم به أحكام الإسلام كمثل المستوقد الذي أضاءت ناره؛ ثم أطفئت، فإنّه يعود إلى الظلمة، لا تنفعه تلك الإضاءة اليسيرة فكان المستوقد في الظلمات لا يبصر كبقاء المنافق في حيرته وتردده، فتأمل دقة اللفظ، فقد سمى تعالى ما انتشر من (النار) (ضياء) وسمى هذا الضياء بعد وقوعه على الإجسام المظلمة وانعكاسه منها على الأبصار (نوراً)؛ أي: فلما وقع ضوء النار على ما حول المنافقين من الأجسام المظلمة؛ ثم انتشر عليها وانعكس منها، فكشفها للناظرين، ذهب الله بالضياء المنتشر المعكوس من الأجسام المظلمة الذي كان يقع على أبصارهم[2] ولذلك نسبه إليهم بقوله تعالى: ﴿بِنُورِهِمْ﴾.

وبعبارة موجزة: (النار) مصدر الضوء، و(النور): انعكاس (الضوء) بعد وقوعه على الأجسام المظلمة، ثم قال تعالى: ﴿وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ﴾؛ أي: أنه تعالى ذهب بنورهم؛ أي: بالضياء المعكوس من الأجسام المظلمة الذي أعانهم على أبصارهم فتولدت ظلمات لا تساعد على الإبصار، فجعل ـ تعالى ـ بذلك الضوء المعكوس أو (النور) هو الضد والمقابل لظلمة الأجسام غير المضيئة بذاتها؛ لأنه هو السبب المباشر في إزالة هذه الظلمة. أما قوله تعالى: ﴿يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْاْ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُواْ...﴾ [البقرة: 20]، فإن المعنى ﴿يَكَادُ ٱلْبَرْقُ﴾: يقرب، يقال: كاد يفعل، ولم يفعل، و(الخطف): الأخذ

(1) الكشاف 2/ 195.

(2) التفسير العلمي للآيات الكونية ص 142.

بسرعة، أو: استلاب الشيء، ﴿كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم﴾: يعني البرق ﴿مَّشَوْاْ فِيهِ﴾: في ضوء البرق. و(القيام): عدم المشي؛ أي: الوقوف في الموضع.

فالنصُّ الكريم مثلٌ آخرُ ضَرَبَهُ اللَّهُ للمنافقين، جاء (كأنَّه جواب لمن يقول: كيف يصنعون في تارتي خفوف البرق وخفيته؟ وهذا التمثيل لشدة الأمر على المنافقين بشدته على أصحاب الصيب وما هم فيه من غاية التحير والجهل بما يأتون وما يذرون، إذا صادفوا من البرق خفقه مع خوف أن يخطف أبصارهم انتهزوا تلك الخفقة فرصة فخطوا خطوات يسيرة، فإذا خفي وفتر لمعانه بقوا واقفين متقيدين عن الحركة، ولو شاء الله لزاد في قصيف الرعد فأصمهم أو في ضوء البرق فأعماهم)[1].

ولعل من المفيد أن نشير ـ هنا ـ إلى أن الفعل ﴿أَضَآءَ﴾ جاء متعدياً إلى مفعول محذوف لدلالة ﴿مَّشَوْاْ﴾ عليه، وتقديره: (الطريق)؛ أي: أضاء لهم البرقُ الطريقَ، كذلك الفعل ﴿أَظْلَمَ﴾؛ أي: إذا أظلم عليهم البرق الطريق بأن أمسك وميضه، وإسناد الإظلام إلى البرق **مجاز** لأنه تسبب في الإظلام، وتأمل هذه الإشارة العظيمة في النظم الكريم، فقد ذكر لفظ ﴿كُلَّمَآ﴾ بجانب (الإضاءة) ولفظ (إذا) بجانب (الإظلام) لدلالة ﴿كُلَّمَآ﴾ على حرصهم على المشي وأنهم يترصدون الإضاءة، فـ (كلما صادفوا منها فرصة انتهزوها، وليس كذلك التوقف والتحبس)[2].

أي: كلما نفعهم البرق بإضاءته افترصوا، وإذا أضرهم باظلامه واختفائه دهشوا. ومثله قوله تعالى: ﴿ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾ [النور: 35].

يفهم من النص الكريم أنَّ وقود هذا المصباح هو زيت ﴿زَيْتُونَةٍ﴾ يكاد يضيء

(1) الكشاف ج 4/ 202.

(2) روح المعاني ج 18/ 186.

في كل حال حتى في حالة لم تمسسه فيها نار؛ أي: ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيٓءُ﴾ من غير نار، فـ(هو في الصفاء والإنارة بحيث يكاد يُضيء بنفسه من غير مساس نار أصلاً)(1).

أي: أنه زيت (سريع التطاير، وقريب من الاشتعال كالزيوت الطيارة التي تشتعل بسرعة في درجات منخفضة وتحترق عن آخرها، أو بعبارة أخرى أنّه زيت خفيف غير ثقيل تام النضج والصفاء وخال من الشوائب)(2).

وقيل: معنى النص الكريم (يكاد يضيء الزيت الصافي قبل أن تمسه النار، فإذا مسته النار زاد ضوؤه. كذلك قلب المؤمن يكاد يعمل بالهدى قبل أن يأتيه العلم فإذا جاء العلم زاد هدى على هدى ونوراً على نور)(3).

ويبدو أنَّ المقصود من المثال جعل الناس يتصورون أشد وأقوى ما يكون من الأضواء، وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا﴾ [يونس: 5].

فقد (نبّه ـ سبحانه وتعالى ـ بذلك على أنَّه خلق الشمس نيرة بذاتها والقمر نيراً بعرض مقابلة الشمس والاكتساب منها)(4).

وقد آثر النص الكريم أسلوب (**القصر**)، لمجيء المسند إليه معروف ﴿هُوَ﴾، وكذلك المسند ﴿ٱلَّذِى﴾، والقصر ـ هنا ـ لإفادة التنبيه على وجوده ـ تعالى ـ ووحدانيته، وعلمه وقدرته وحكمته بآثار صنيعه في (الشمس) و(القمر) فـ﴿جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً﴾ لانتفاع الناس بضيائها في مشاهدة ما تهمهم بما به قوام أعمال حياتهم في أوقات أشغالهم.

(1) تفسير سورة النور ص 199 ـ 200.
(2) التفسير العلمي للآيات الكونية في القرآن ص 143.
(3) الفتوحات الإلهية 3/ 224.
(4) تفسير البيضاوي 313.

وجعل ﴿ٱلْقَمَرَ نُورًا﴾ للانتفاع بنوره انتفاعاً مناسباً للحاجة التي قد تعرض إلى طلب رؤية الأشياء في وقت الظلمة وهو الليل[1].

وقال **بعض المفسرين**: (خص الشمس بالضياء لأنه أقوى وأكمل من النور، وخص القمر بالنور لأنه أضعف من الضياء)[2].

ونبّهت جماعة من المفسرين إلى أن: (الضياء هو الذي يكون بالذات والنور هو الذي يكون بالعرض، فنور القمر مكتسب من ضياء الشمس)[3].

وهذا الرأي **أقرب إلى الدلالة العلمية** للفظتين، وأكثر دقة في فهم الواقع اللغوي للسياق القرآني الذي ميّز بين دلالة كل لفظة، أما أهل اللغة فقد اعتمدوا على الاشتقاق اللغوي للتمييز بين اللفظتين فذكروا أن (الضياء: النور الساطع القوي؛ لأنه يضيء للرائي، وهو اسم مشتق من الضوء، وهو النور الذي يوضح الأشياء، ويحصل به الأبصار فالضياء أقوى من الضوء.

والنور: الشعاع، وهو اسم مشتق من اسم النار، وهو أعم من الضياء، يصدق على الشعاع الضعيف والشعاع القوي، فضياء الشمس نور، ونور القمر ليس بضياء، هذا هو الأصل في إطلاق هذه الأسماء، ولكن يكثر في كلام العرب إطلاق بعض هذه الكلمات في موضع بعضها الآخر، بحيث يعسر انضباطه)[4].

وقال تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ [القصص: 71]؛ (السرمد): بمعنى الدائم الذي لا ينقطع فقد تضمن السياق الكريم استدلالاً **بأسلوب تلقين** النبي ﷺ أن يقوله لهم اهتماماً بهذا التذكير لهذا الاستدلال على وحدانية الله، وهو هذا الصنع

(1) التحرير والتنوير ج 11/ 94.
(2) الفتوحات الإلهية ج 2/ 334.
(3) حُسن البيان: 46.
(4) الفتوحات الإلهية ج 2/ 334.
(5) التحرير والتنوير ج 20/ 168، 169.

العجيب المتكرر كل يوم مرتين، والذي يستوي في إدراكه كل مميز، والذي هو **أجلى مظاهر التميز في هذا العالم**، فهو دليل الحدوث، وهو مما يدخل في التكيف به جميع الموجودات في هذا العالم، فالاستدلال بتعاقب الضياء والظلمة على الناس أقوى وأوضح من الاستدلال بتكوين أحدهما لو كان دائماً.

فكأن (الاستدلال - هنا - يشتمل على ضدين متعاقبين، حتى لو كانت **عقولهم قاصرة** على إدراك دلالة أحد الضدين، لكان في الضد الآخر تنبيه لهم، ولو قصروا عن حكمة كل واحد منهما كان في تعاقبهما ما يكفي الاستدلال)[1].

يقول الرازي في تفسير النص الكريم:

(نبّه الله - تعالى - بهذه الآية على أن الليل والنهار نعمتان يتعاقبان على الزمان؛ لأن المرء في الدنيا مضطر إلى أن يتعجب لتحصيل ما يحتاج إليه، ولا يتم له ذلك لولا ضوء النهار ولولا الراحة والسكون بالليل فلا بُدّ منهما في الدنيا . .)[2].

وإذا **تأملت** النظم الكريم تلمست تناسقاً رائعاً بين **الاستفهام التقريري** في قوله تعالى ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾ **والاستفهام الإنكاري** في قوله عز وجل ﴿مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ﴾ وفي ذلك إشارة إلى أنهم معترفون بهذا الانتفاء وأن خالق الليل والنهار هو الله - تعالى - لا غيره.

وقد آثر السياق لفظ (الضياء) دون (النهار)؛ لأن ظلمة الليل قد تخف قليلاً بنور القمر، فكان ذكر الضياء إيماء إلى ذلك، وقد جاء لفظ (ضياء) نكرة، غير مقترنة بوصف، وفي ذلك إشارة أخرى إلى كثرة منافعه واختلاف أنواعه، وقد نبّه **الزمخشري** إلى ذلك بقوله (فإن) قلت: هلا قيل (بنهار) تتصرفون فيه، كما قيل: ﴿بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ﴾؟

(1) التحرير والتنوير ج 11/ 94.
(2) تفسير الرازي ج 25/ 11.

قلت: ذكر (الضياء) وهو ضوء الشمس؛ لأن المنافع تتعلق به متكاثرة ليس التصرف في المعاش وحده والظلام ليس بتلك المنزلة، ومن ثمة قرن بـ(الضياء)، ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾؛ لأن السمع يدرك ما لا يدركه البصر من ذكر منافعه، وقرن بالليل ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾؛ لأن غيرك يبصر من منفعة الظلام ما تبصره أنت من السكون ونحوه)[1].

وبيّن الله ـ سبحانه وتعالى ـ صفات ضياء الشمس، فقال تعالى: ﴿وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا﴾ [نوح: 16]؛ أي: لقد جعل الله ـ سبحانه وتعالى ـ الشمس في السماءِ سراجاً قوياً متلألئاً وقّاداً (يبصر أهل الدنيا في ضوئها كما يبصر أهل البيت في ضوء السراج ما يحتاجون إلى إبصاره)[2]. تأمَّل قول الزمخشري في تفسيره القول الكريم:

(وإنَّما قيل عن (الشمس) إنَّها (سراج)؛ لأنها: متوقدة في ذاتها ومصدر إشعاع، وقيل عن القمر أنَّه نور؛ لأنه: لا توقد له، وإنَّما هو بمنزلة المرآة التي تعكس نور الشمس)[2].

فأنت ترى أنَّ في وصف الشمس ﴿سِرَاجًا﴾ دقة في إيثار اللفظة المناسبة وإشارة لا تخفى إلى الإعجاز العلمي للقرآن الكريم.

ـ أما الدقة في إيثار اللفظ، فينبهنا عليها **الزمخشري**، بقوله:

(وهاجاً): متلالئاً وقّاداً: ـ يعني الشمس، وتوهجت النار إذا تلمظت وتوهجت بضوئها (وحرها)، ويقال: أنار السراج ونوَّره.. وقيل: للنار وهج شديد وتوهّج ـ وفي (السراج): توقد وحرارة، وضوء وهو ما يتوافر في الشمس[3]
ـ أما الإشارة العلمية فهي أن ذلك السراج هو الشمس المضيئة الباعثة للحرارة

(1) الكشاف ج 3/ 189.
(2) المصدر السابق ج 4/ 163.
(3) الكشاف ج 4/ 207 (بتصرف).

التي تعيش عليها الأرض وما فيها من الأحياء والتي تؤثر كذلك في تكوين السحب بتبخير المياه من المحيط الواسع في الأرض ورفعها إلى طبقات الجو العليا، وهي ﴿ٱلْمُعْصِرَٰتِ﴾[1].

وقد توصل العلم الحديث إلى هذه الحقائق منذ وقت قريب، فسبحان الله القادر على كل شيء، والذي لا يخفى عليه شيء وهو العليم القدير، وقد ورد لفظ (السراج) في أربعة مواضع من القرآن الكريم، ومنها قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا﴾ [النبأ: 13]، وقوله عز وجل: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا﴾ [الفرقان: 61].

فقد جاء هنا على **التشبيه البليغ**؛ لأن حقيقة السراج ـ كما ذكرنا ـ المصباح الزاهر الضياء، والمقصود أنه جعل الشمس مزيلة للظلمة كالسراج. وهو مكان ضوء في ذاته.

وقد يستعمل لفظ (الضوء) **بدلالته المجازية**، كما في قوله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [الأنبياء: 48].

قال بعض المفسرين: إنَّ معنى النص الكريم: (وبالله لقد آتيناهما كتاباً جامعاً بين كونه فارقاً بين الحق والباطل) و﴿وَضِيَآءً﴾؛ يستضاء به في ظلمات الجهل والغواية، وذكراً تتعظ به الناس ويتذكرون، وتخصيص (المتقين) بالذكر لأنَّهم المنتفعون به أو ذكر ما يحتاجون إليه من الشرائع والأحكام، أو شرف لهم)[2].

وتعددت دلالات ﴿ٱلْفُرْقَانَ﴾ عند أهل التفسير: فقيل: ﴿ٱلْفُرْقَانَ﴾: النصر، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ﴾ [الأنفال: 41]، وأطلق عليه لفرقه بين الولي والعدو. و(الضياء) ـ حينئذ ـ أمّا (التوراة) أو (الشريعة) أو (اليد البيضاء)، وقيل

(1) المنهج الإيماني للدراسات الكونية في القرآن الكريم: 9.
(2) الكشاف ج 2/ 575.

ـ أيضاً ـ إنَّ ﴿ٱلْفُرْقَانَ﴾: فلق البحر، و(الفرق) و(الفلق) أخوان، وهو اللائق بسمات النص الكريم، فإنّه لتحقيق أمر القرآن المشارك لسائر الكتب الإلٰهية، لا سيما (التوراة) فيما ذكر من الصفات، ولأن (فلق البحر) هو الذي اقترح الكفرة مثله بقوله ﴿فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ﴾ [الأنبياء: 5].

وقيل: ﴿ٱلْفُرْقَانَ﴾: (التوراة)، كقوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُمَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ﴾ [الصافات: 117]، ويجوز أن يراد (بالفرقان): المعجزات الفارقة بين المعجز والسحر، كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ [هود: 96]، أو يراد به: الشريعة الفارقة بين العدل والجور كقوله تعالى: ﴿وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: 53]، وعلى هذه الاحتمالات المذكورة ـ سابقاً ـ تجيء الاحتمالات في قوله عز وجل: ﴿وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ﴾.

و(ليس يلزم أن تكون بعض هذه الصفات قسيماً لبعض؛ بل هي صفات متداخلة فمجموع ما أوتيه (موسى) و(هارون) عليهما السلام تتحقق فيه هذه الصفات الثلاث)[1].

(الفرقان وضياء وذكراً)، أمّا (ضياء)؛ فدلالته مجازية على معنى (الهدى) و(العلم)، فيجوز أن يكون معنى النص الكريم (وآتينا بما فيه من الشرائع والمواعظ وذكراً)[2].

وقد قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾ [المائدة: 44].

وقد كثر استعمال (الضياء) بهذا المعنى في كلام العرب ولعل من المفيد أن نشير ـ هنا ـ إلى أن النظم الكريم، قد تصدر بـ(اللام) المقترنة (قد) فكانت الجملة جواب قسم محذوف، وقد ناسب هذا التوكيد دلالة السياق، لتنزيل المشركين في جهل بعضهم بذلك وذهول بعضهم عنه وتناسي بعضهم إياه منزلة من ينكر تلك

(1) التحرير والتنوير ج 17/ 89.
(2) الكشاف ج 2/ 575.

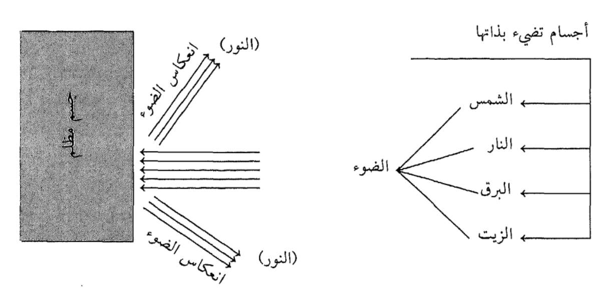
القصة، وبعد هذا العرض الموجز للمواضيع القرآنية التي ورد فيها لفظ (الضياء) ومشتقاته نجد من المفيد تسجيل **الملاحظة الآتية**:

لقد استعمل السياق القرآني لفظ (أضاء) للنار، وللبرق، ولفظ (يضيء) للزيت، بمعنى أن هذه (الأجسام) تضيء بذاتها، مثلما استعمل لفظ (الضياء) للشمس، وهو ضياء ذاتي بدليل قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا﴾ [نوح: 16].

﴿وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا﴾ [الفرقان: 61].

وقد وصف السراج بأنه (وهاج) فقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا﴾ [النبأ: 13].

ولم يرد لفظ (النور) مع الشمس، فكأنَّ اقتران لفظ (الضياء) بهذه المفردات يؤكّد دلالتها بأنها مصدر ذاتي يشع منها (الضوء)، **ولتوضيح المقصود من هذه العبارة** نرسم المخطط الآتي:



وتجد من المفيد ـ في نهاية هذا المبحث أنْ نُذكّر بمسألة دلالية، وهي أَنَّ **من فنون العبارة القرآنية** استعمال لفظ (الضياء) **بدلالته المجازية** على الهداية والإيمان.

المبحث الثاني

«مصادر الضوء»

من مصادر «الضوء» التي ذكرها السياق الكريم.

أولاً: «المصابيح»

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ﴾ [الملك: 5].

قال **أهل التفسير**: السماء الدنيا: القربى؛ لأنها أقرب السمٰوات إلى الأرض، وهي التي يراها الناس؛ أي: السماء الدنيا منكم، و(المصابيح) واحدها (مصباح) ويعني (النجوم)، سماها تعالى (المصابيح) لاضاءتها، وهي (السرج)، وتنكير (مصابيح) للتعظيم[1].

يقول الزمخشري: الناس يزينون مساجدهم ودورهم بأثقاب المصابيح، فقيل: ولقد زيّنا سقف الدار التي اجتمعتم فيها ﴿بِمَصَٰبِيحَ﴾؛ أي: مصابيح لا توازيها مصابيحكم إضاءة، وضممنا إلى ذلك منافع أخرى[2].

ومعنى قوله تعالى ﴿وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ﴾؛ أي: ﴿وَجَعَلْنَٰهَا﴾ يعني النجوم، ﴿رُجُومًا﴾: والرجوم جمع رجم وهو مصدر سمي ما يرجم به؛ أي: جعلنا منها رجوماً ﴿لِّلشَّيَٰطِينِ﴾: أعدائكم الذين يخرجونكم من النور إلى الظلمات، والذين يسترقون السمع.

---

(1) تنوير المقباس من تفسير ابن عباس ص 363، تفسير ابن جزي ص 780، تفسير البيضاوي ج 4/ 211. ينظر ـ أيضاً ـ: التحرير والتنوير ج 24/ 250، روح المعاني ج 24/ 104.

(2) الكشاف ج 4/ 135.

ومعنى كونها مراجم الشياطين (أن الشهب التي تنقص لرمي المسترقة منهم منفصلة من نار الكواكب، لا أنهم يرجمون بالكواكب أنفسها لأنها قارة في الفلك على حالها ـ إلى أن يريد الله إفناءها ـ وما ذلك إلّا كقبس يؤخذ من نار، والنار ثابتة كاملة لا تنقص)(1).

فالضمير في قوله تعالى ﴿وَجَعَلْنَاهَا﴾ عائد على جنس المصابيح لا على عينها؛ لأنه لا يرمي بالكواكب التي في السماء بل بشهب من دونها، أو مستمدة منها(2).

فأنت ترى أن النص الكريم يُذكِّر الناس بنعمة عظيمة من نعم الله ـ سبحانه وتعالى ـ فساقها بجملة مؤكدة مصدرة بـ(لقد) فهي جواب قسم محذوف.

أي: حَسَّنا السماء وزيناها بنجوم كالمصابيح التي لا توازيها مصابيحكم إضاءة وهذه النجوم ينفصل منها شهب تنقضّ لرمي الشياطين أعدائكم.

أي: شياطين الإنس والجن مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ﴾ [الأنعام: 112] ولعل من المفيد أن ننبّه ـ هنا ـ إلى تلك الإشارة في **الإعجاز العلمي** مما جاء به القرآن الكريم من **أسرار الخلق والكون**.

فالقرآن الكريم أنبأ الناس (زينة السماء) التي يشاهدونها ومكانها، والسبب فيها وما كان هؤلاء الناس يعرفونها، وبعد قرون عديدة جاء العلم الحديث ليقربها ويؤكد صدقها وبذلك يتنبه أهل العلم إلى **بعض الأسرار من الإعجاز العلمي** للقرآن الكريم فتتوضح بيِّنة أخرى على صدق رسالة نبينا الأمي محمد ﷺ ومثله قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ۚ﴾ [فصلت: 12].

(الوحي): الكلام الخفي، ويطلق الوحي على حصول المعرفة في نفس من

(1) الكشاف ج 4/ 135.

(2) تفسير ابن كثير ج 4/ 396.

يراد حصولها عنده دون قول، ومنه قوله تعالى حكاية زكريا عليه السلام ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُواْ بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم: 11]؛ أي: أومأ إليهم بما يدل على معنى: ﴿سَبِّحُواْ بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾.

ثم يتوسع فيه فيطلق عليه إلهام الله تعالى لمخلوقاته لما تتطلبه مما فيه صلاحها كقوله تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا﴾ [النحل: 68].

أي: جبلها على إدراك ذلك وتطلبه، ويطلق على تسخير الله ـ تعالى ـ بعض مخلوقاته لقبول أثر قدرته، فقال ـ تعالى ـ: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ [الزلزلة: 1]؛ ثُمَّ قال عز وجل: ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾ [الزلزلة: 5]، والوحي في السماء يقع على جميع هذه المعاني من استعمال اللفظ في حقيقته ومجازاته فهو أوحى في السمٰوات بتقادير نظم جاذبيتها، وتقادير سير كواكبها، وأوحى فيها بخلق الكواكب فيها، وأوحى إلى الملائكة بما يتلقونه من الأمر بما يعملون(1).

قال تعالى: ﴿وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنبياء: 27]، (في كل سماء أمرها)؛ أي: أوحي إلى أهلها بأوامره ونواهيه(2).

وقيل (أمرها) تقديره: بأمرها، على نزع الخافض، أو على تضمين ﴿أَوْحَىٰ﴾ معنى: (قدر) أو (أودع)، أو: بمعنى شأنها، وهو يصدق بكل ما هو من ملابساتها من سكانها وكواكبها وتماسك جرمها والجاذبية بينها وبين ما يجاورها(3).

وذلك مقابل قوله تعالى في خلق الأرض: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا﴾ [فصلت: 10]، **يقول الزمخشري** (معنى ﴿أَمْرَهَا﴾: ما أمر به فيها ودبره من خلق الملائكة والنيران وغير ذلك، أو شأنها وما يصلحها)(4).

(1) التحرير والتنوير ج 24/ 250 ـ 251.
(2) تفسير البيضاوي ج 4/ 115.
(3) التحرير والتنوير ج 24/ 251.
(4) الكشاف ج 3/ 447.

وقد عدل النظم الكريم عن الغيبة في قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ﴾ إلى طريق التكلم ﴿وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ﴾ وفي ذلك تجديد لنشاط السامعين، وإظهار العناية بتخصيص هذا الصنع الذي ينفع الناس دينا ودنيا فزينة السماء حاصلة من ضياء نيران كثيرة، مثل ضياء الشمس أو السرج، والنجوم والشهب والكواكب، وغيرها - يعلمها الله - فهي في السماء كالمصابيح في السقوف وما السماء الدنيا إلّا من جملة السمٰوات، وما النجوم والشهب إلا من جملة أمرها.

أما قوله تعالى: ﴿وَحِفْظًاۚ﴾، فقد انتصب على المفعولية المطلقة، لفعل مقدر، معطوف على قوله عز وجل: ﴿زَيَّنَّا﴾؛ أي: وحفظناها حفظاً من الآفات أو من الشياطين المسترقة للسمع، وقيل: إنه مفعول لأجله لفعل محذوف دلّ عليه فعل ﴿زَيَّنَّا﴾، والتقدير: وجعلناها حفظاً والمراد: حفظاً للسمٰوات من الشياطين المسترقة للسمع.

ثانياً: «الكواكب»:

في سورة الصافات يؤثر **النظم القرآني** أسلوباً جديداً في التذكير بهذه النعمة العظيمة والقدرة الجليلة لرب السمٰوات والأرض، فيقول تعالى: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ * وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ﴾ [الصافات: 6 - 7] فالله - سبحانه وتعالى - يذكر الناس بمنة أن ﴿ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا﴾؛ أي: القربى من أهل الأرض[1] زينها بزينة عجيبة، و(الزينة): مصدر كالنسبة واسم لما يزان به الشيء كاللقية، يقول **الزمخشري**: (فإن أردت المصدر فعلى إضافته إلى الفاعل؛ أي: بأن زانتها الكواكب، وأصله: بزينة الكواكب. أو على إضافته إلى المفعول؛ أي: بأن زان الله الكواكب حسناً.

---

(1) ذكر أحد الباحثين المعاصرين أن المقصود من «السماء الدنيا» هو: (جو الأرض وعلى هذا الاعتبار يكون معنى الآية: (وزينا السماء التي هي من طبقات جو الأرض العليا بضياء من نيران السماء). ينظر: التفسير العلمي للآيات الكونية في القرآن ص 151.

لأنها زينت السماء لحسنها في أنفسها، وأصله: بزينة الكواكب، وإنْ أَرَدْتَ الاسم فللإضافة وجهان:

ـ أنْ تقع ﴿ٱلْكَوَاكِبِ﴾ بياناً للزينة؛ لأنَّ الزينة مبهمة في الكواكب وغيرها مما يزان به.

ـ وأنْ يراد ما زينت به الكواكب.

والقراءة بتنوين ﴿زينة﴾ وجر الكواكب، على الأبدان..[1].

أي: بزينة هي الكواكب؛ أي: بضوئها؛ لأن (الضوء) و(النور) من أحسن الصفات وأكملها، فإذا نظر الإنسان في ليلة مظلمة إلى السماء ورأى هذه الكواكب مشرقة متلألئة على سطح أزرق في السماء كعروس في ليلة الزفاف، وفي ﴿بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ﴾؛ نعمة أخرى، هي أن الله عز وجل جعل الكواكبَ حفظاً من تلقي الشياطين للسمع فيما قضى الله في العالم العلوي لقطع سبيل اطلاع الكهان على بعض ما سيحدث في الأرض، فلا يفتنوا الناس في الإسلام كما فتنوهم في الجاهلية، وليكون ذلك تشريفاً للنبي ﷺ: بأن قطعت الكهانة عند إرساله، وللإشارة إلى أن فيها منفعة عظيمة دينية، وهي قطع دابر الشك في الوحي.

فقال تعالى: ﴿وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ﴾؛ أي: حفظ الله ـ عز وجل ـ السماء بالكواكب من كل شيطان خارج عن الطاعة برجمه بالشهب عند محاولته استراق السمع فتفر الشياطين خشية أن تصيبها، ولكي ندرك المعنى المقصود من لفظ ﴿ٱلْكَوَاكِبِ﴾ في قوله تعالى ﴿بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ﴾، يحاول تدبّر معنى قوله عز وجل ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾ [الملك: 5]، وقوله تعالى: ﴿وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾ [فصلت: 12] ثُمَّ نطرح السؤال الآتي، لم آثر النظم الكريم لفظ ﴿ٱلْكَوَاكِبِ﴾ في سورة (الصافات الآية 7) بدلاً من (المصابيح) في سورة الملك: 5 وسورة فصلت: 12 فإن عدنا إلى المعاجم وجدنا أهل اللغة لا يفرقون بين (النجم) و(الكوكب)[2].

---

(1) الفتوحات الإلهية ج 4/ 531.

(2) ينظر: لسان العرب مادة «نجم».

وكذلك كتب التفسير التي استطعنا الرجوع إليها، فلا بُدّ لنا ـ هنا ـ من استقراء النصوص القرآنية الكريمة التي وردت فيها لفظتا (الكواكب) و(النجوم) ـ بالجمع والإفراد ـ ثم نتقرب من مقام كل نص، لنفهم المعنى، ونستشرف الغرض المقصود من السياق الكريم، أما **الموضع الأول**، فهو قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا﴾ [الأنعام: 76].

ومعنى قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ﴾؛ أي: أظلم على سيدنا إبراهيم عليه السلام؛ أي: كان عليه السلام محوطاً بظلمة الليل، وستر عنه الظلام ما حوله من عالم الأرض نظر في ملكوت السماء، وقيل: حصلت له رؤيا الكواكب عرضاً من غير قصد للتأمل، ﴿رَءَا كَوْكَبًا﴾؛ أي: رأى كوكباً عظيماً ممتازاً على سائر الكواكب بإشراقه وجذب النظر إليه، يدل على ذلك تنكير الكواكب.

فالظاهر أن سيدنا إبراهيم عليه السلام رأى كوكباً من بينها شديد النور والإشراق؛ أي: كان هذا الكوكب حين رآه واضحاً في السماء مشرقاً، و(أفل): بمعنى غاب، و(الأفول): خاص بغياب النيّران السماوية، يقال: (أفل النجم، وأفل القمر، وأفلت الشمس؛ وهو المغيب الذي يكون بغروب الكوكب وراء الأفق بسبب الدورة اليومية للكرة الأرضية، فلا يقال: أفلت الشمس، أو أفل النجم: إذا احتجب بسحاب، والمقصود (الكوكب) عند **كثير من المفسرين أنّه** (الزّهرة))[1]. وقال آخرون إنَّه (المشتري)[2] وإذا استعنَّا بكتب الفلك لمعرفة (الزهرة) علمنا أن: (الزهرة): تبدو للعين المجردة جرماً رائعاً، وأكثر تألقاً من أي جرم سماوي آخر ما عدا (الشمس) و(القمر)، وجو الزهرة مؤلف من ثاني أوكسيد الكاربون الذي يقوم بدور (دثار) يحتجز حرارة الشمس.

وعندما تدخل (الزهرة) في الزوال يبدو أنها ترسم وراءها رقعة من السواد

---

(1) تنوير المقباس ص 95.

(2) لسان العرب: «مادة ككب». ينظر ـ أيضاً ـ: التحرير والتنوير ج 7/ 318.

(القرص الأسود) وهي أثر يحدثه جو السيار، ولا تزول الرقعة إلّا عندما يكون السيار داخل قرص الشمس.

ثبت أن سطح الزهرة ذو حرارة مفرطة، وأن مدة الدوران المحوري بطيئة (243) يوماً أرضياً، وهي أطول من مدة الطوفان حول الشمس، ولذلك يكون النهار على الزهرة أطول من (السنة وهي تدور بإتجاه عكسي؛ أي: من الشرق إلى الغرب، بدلاً من أن تدور من الغرب إلى الشرق كالأرض، وأكثر السيارات الأخرى)[1].

فالضوء الصادر من الزهرة ليس ذاتياً ولكنه بالأنعكاس[2].

أما (المشتري)، فيرى علماء الفلك، أنه أكبر السيارات الأخرى مجتمعة حتى قيل: إنّ النظام الشمسي مؤلف من الشمس والمشتري وحطام منوعة. أما مدة دورانه حول الشمس فتستغرق دورته أكثر من أحدى عشرة سنة، ودورته الافتراضية؛ أي: متوسط المدة الفاصلة بين مقبلتين متواليتين (299 يوماً)، وبإمكان كرة المشتري الهائلة أن تتبع جسماً هائلاً بحجم الأرض.

وترى على سطح المشتري مناطق نيرة وأحزمة قائمة، ونظراً لسرعة الدوران المحوري للسيار ترى الأشكال المختلفة تتغير على القرص حتى في خلال دقائق معدودة، ومعنى ذلك أن لفظ (الكوكب) جاء بدلالته الأصلية - (الزهرة) أو (المشتري) - التي تعني أنه (كوكب)[3].

وبعد هذه الإشارة من كتب أهل الفلك، نعود إلى نظم الآية الكريمة إذ قال تعالى: ﴿بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ﴾؛ أي: بضوئها، فسمي هذا الضوء زينة لها تزين به السماء الدنيا وبما أن الزينة ليست صفة لازمة للأجسام، ومحلها دائماً سطوح الأجسام

(1) بهجة المعارف - موسوعة علمية مصورة/ المجموعة الأولى (الكول) ص 80.
(2) الكون والإعجاز العلمي للقرآن ص 255.
(3) بهجة المعرفة ص 112 وما بعدها.

ولا تتناول باطنها. وبما أن الله عز وجل قال: ﴿بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ﴾، ولم يقل (بالكواكب)، كما قال تعالى: ﴿وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [النحل: 16].

فيستدل من ذلك أن ضوء الكواكب هو زينتها، وليس من ذاتها، وليس جزءاً منها؛ بل هو عارض عليها؛ أي: هو ضوء مكتسب ومعكوس منها.

أو بعبارة أخرى: تتضمن هذه الآية إشارة قوية إلى أن الكواكب أجرام مظلمة تضيء بضياء غيرها (النجوم)[1].

ومعنى ذلك أن (الكواكب) في قوله تعالى: ﴿بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ﴾ [الصافات: 6] تختلف عن (مصابيح) في قوله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾ [الملك: 5]، وقوله عز شأنه: ﴿وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾ [فصلت: 12].

لأن (الأولى (الكواكب) ليست منيرة بذاتها بينما الثانية (مصابيح): تشير إلى الشموس؛ أي: (النجوم) التي تتوهج ذاتياً)[2].

ويؤكد هذا الفرق قوله تعالى: ﴿ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾ [النور: 35]، وهنا يتضح أن الكوكب يعكس الضوء كالزجاج وأنه يوقد من شجرة مباركة.

وبهذه الدلالة لمفردة (الكوكب) تستطيع التقرب من الآية الرابعة في سورة «يوسف» عليه السلام التي ورد فيها لفظ (الكوكب).

يقول تعالى: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ﴾ [يوسف: 4].

فالنداء في قوله تعالى ﴿يَٰٓأَبَتِ﴾ مع كون المنادي حاضراً مقصود به إشارة بينة إلى أهمية الخبر الذي سيلقى على المخاطب ينزل المخاطب منزلة الغائب المطلوب حضوره.

---

(1) التفسير العلمي للآيات الكونية في القرآن ص 151.
(2) الكون والإعجاز العلمي للقرآن ص 126.

﴿إِنِّي رَأَيْتُ﴾؛ أي: في المنام، وفي التركيب إشارة ثانية إلى أنّ الله هيأه للنبوة، فابتدأ بالرؤيا الصادقة.

وفيها - أيضاً - تنبيه لا يخفى إلى علو شأنه وقال تعالى: ﴿أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾: ذكر أهل التفسير وجهين في تفسير هذا القول الكريم:

الأول: تأويل الكواكب في المنام إخوته، ﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ أبواه، وسجودهم له تواضعهم له ودخولهم تحت كنفه[1].

الثاني: أنها نجوم غير مرصودة خُصَّت بالرؤيا لغيبتهم عنه[2].

﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ مندرجان في الـ﴿أَحَدَ عَشَرَ﴾ ويفسر لنا الزمخشري النكتة في تأخر ذكرها، فيقول: (فإن قلت: لم أخر الشمس والقمر؛ قلت: أخرها ليعطفها على الكواكب، على طريق الاختصاص بياناً لفضلهما واستبدادهما بالمزية على غيرهما من الطوالع، كما أخر (جبريل) و(ميكائيل) عن الملائكة ثم عطفهما عليها لذلك)[3].

وأجاز الزمخشري - أيضاً - أن تكون «الواو» في قوله تعالى: ﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ بمعنى: (مع)؛ أي: رأيت الكواكب مع الشمس والقمر، وأيد أبو حيان هذا الرأي، وعضده بما روي عن الرسول محمد ﷺ عن جابر أن سناناً اليهودي جاء إلى الرسول محمد ﷺ فقال: أخبرني يا محمد عن النجوم التي رآهن يوسف، فسكت رسول الله ﷺ فنزل جبريل عليه السلام فأخبره بذلك، فقال النبي ﷺ لليهودي: إنْ أخبرتك هل تسلم؟ قال نعم وعدَّ الرسول ﷺ أحد عشر كوكباً غير الشمس والقمر[4].

(1) تفسير ابن جزي ص 307.
(2) الفتوحات الإلهية ج 2/ 435.
(3) الكشاف ج 2/ 302.
(4) البحر المحيط ج 5/ 280.

أي أن الرسول ﷺ حين عدَّ هذه الكواكب لليهودي ذكر أحد عشر كوكباً غير الشمس والقمر[1].

واختار بعض المفسرين الوجه الأول الذي ذكره **الزمخشري**، بحجة أن تخصيص الشمس والقمر بالذكر، وعدم الاندراج في عموم الكواكب لاختصاصها بالشرف وتأخيرهما لأن سجودهما أبلغ وأعلى منزلة فهو من باب: (لا يعرفه فلان ولا أهل بلده)؛ أو: أنّ تأخيرهما إنّما هو باب الترقي من الأدنى إلى الأعلى.

ويبدو لنا ـ والله أعلم ـ أن الذي اختاره أبو حيان أقرب إلى البنية النصية للسياق الذي يتطلب مناسبة المقام ومقتضى الحال؛ أي: يتناسب سجود هذه الكواكب والشمس والقمر لعلو شأن (فوق) وتعظيم منزلة. أما علماء الطبيعة المعاصرون فيرى بعضهم أن المقصود هنا ـ هو (كواكب المجموعة الشمسية). **يقول د. منصور حسب النبي**: أعتقد أن الأحد عشر كوكباً قد تمثل عدد الكواكب في المجموعة الشمسية، ويؤيد اعتقادي هذا توقع اكتشاف كوكب جديد في المستقبل فلقد دلت حسابات العقل الإلكتروني حديثاً عن توقع وجود كوكب بعد (بلوتو) لم تتم رؤيته بالأرصاد بعد، يدعي كوكب (أكس)، كما توقع بعض العلماء وجود كوكب بين الشمس وعطارد لم تتحقق رؤيته يدعى (فولكانو).

وعلى أي حال، فعدد الكواكب المعروفة الآن تسعة (بدون الكويكبات) فإذا تحقق اكتشاف أحد هذين الكوكبين الجديدين أو كليهما فإن العدد سيصبح أحد عشر (بالكويكبات) أو بدونها وأعلم أنَّ الكواكب المعروفة أيام نزول القرآن خمسة كواكب هي: (عطارد) و(الزهرة) و(المريخ) و(المشتري) و(زحل) وذلك بدون حساب الأرض وظل هذا الاعتقاد سائداً حتى أواخر القرن الثامن عشر حيث تم اكتشاف (التليسكوب)[2].

(1) روح المعاني ج 12/ 179.

(2) الكون والإعجاز العلمي في القرآن ص 126 ـ 127.

ولعل من المفيد أنْ نشير ـ هنا ـ إلى أن تقديم (الشمس) على (القمر) يغلب أنْ يسلكه النظم القرآني، فقد قُدِّمت (الشمس) على (القمر) في نحو (عشرين) موضعاً، ومنها قوله تعالى: ﴿ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾ [الرحمٰن: 5].

وقال عز وجل: ﴿وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾ [القيامة: 9].

وقال عز شأنه: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا﴾ [يونس: 5].

وهنا نلتمس إشارة عظيمة **في الإعجاز العلمي للقرآن**، هي أن تقديم (الشمس) على (القمر) على أنها تفيض الضوء عليه، فهي مصدر ضوئه ينعكس نوراً، كذلك يدلنا على كونها أعظم جرماً وأسطع ضوءاً، وأكثر فياً من القمر، وأحسن مكاناً منه[1]، وكون القمر تابعاً للمجموعة الشمسية ولم يرد القمر سابقاً لورود الشمس إلّا في موضع واحد موصوف فيه القمر ﴿وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا﴾ [نوح: 16]، فهل يكون هذا تعظيم لقدر النور الذي هو اسم من أسماء الله الحسنى؟ تأمل ذلك. وقال تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ * وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ * وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ * وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ * عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾ [الانفطار: 1 ـ 5]، فقد تكرر تصدر الآيات السابقات ﴿إِذَا﴾؛ وهي ظرف متضمن معنى الشرط ومعنى ذلك أنّ السياق الكريم سلك أسلوب الشرط المؤذن بذكر جوابه بعده فإذا سمع المخاطب جملة الشرط، ترقب ما سيأتي بعدها، فعندما يسمعها تتمكن من نفسه كمال التمكن.

وفي إيثار ﴿إِذَا﴾ عن غيرها من أدوات الشرط إشارة إلى أنّ الحدث واقع لا محالة. ثم في تصدر ﴿إِذَا﴾ المسند إليه ـ في جميع آيات هذه السورة ـ المخبر عنه بمسند فعلي، تقوية للحكم وتأكيد له في جميع تلك الجمل، رداً على إنكار منكريه.

معنى قوله: ﴿ٱنفَطَرَتْ﴾؛ فالفعل (انفطر) مطاوع (فطر)، إذا جعل الشيء

---

(1) ينظر البحر المحيط ج 5/ 280. روح المعاني ج 12/ 179.

مفطوراً وأي: مشقوقاً ذا فطور، كقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ﴾؛ أي: إذا السماء انشقت وتقطعت.

و﴿ٱنتَثَرَتۡ﴾: تساقطت متفرقة وتهافتت (انتثار) مطاوع (النثر) ضد الجمع وضد (الضم) وهو (استعارة) لإزالتها، حيث شبهت بجواهر قطع سلكها، و(النثر): رمي الأشياء على الأرض بتفرق.

النص الكريم؛ يصف مشهداً مروّعاً من مشاهد يوم القيامة؛ أي: ما سيحدث للسماء لأجرامها مثل (الكواكب) فالسماء تتشقق وتتقطع وتتصدع، والكواكب (تنتثر)، وانتثارها مستعار لتفرق هيئات اجتماعها المعروف في مواقعها[1].

أو مستعار لخروجها من دوائر أفلاكها وسمٰواتها، فتبدو مضطربة في الفضاء بعد أن كانت تلوح كأنها قارة.

فانتثارها ـ كما ذكرنا ـ تبددها وتفرق مجتمعها. وذلك من آثار اختلال قوة الجاذبية التي أقيم عليها نظام العالم الشمسي.

ثالثاً: «النجوم»

بعد أنْ اقتربنا ـ في الصفحة السابقة ـ من دلالة لفظة «الكواكب» نجد من المناسب أن نعرض لمفهوم لفظة «النجوم»، لذلك نرى من المفيد إعادة السؤال السابق: **هل فرق السياق القرآني بين (الكواكب) و(النجوم)**؟ ولكي نصل إلى الإجابة لا بدأ أَنْ نقرأ النص القرآني الذي يصف مشهداً من مشاهد يوم القيامة ـ أيضاً ـ يقول تعالى: ﴿إِذَا ٱلشَّمۡسُ كُوِّرَتۡ * وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتۡ﴾ [التكوير: 1 ـ 2].

نُقِلَ عن ابن عباس رضي الله عنهما، والحسن وقتادة أنّ (كورت ـ تكور: حتى ذهب ضوؤها فأظلمت واضمحلت)[2].

(1) التحرير والتنوير ج 30/ 171.

(2) معجم غريب القرآن «كور» ص 182.

وقال بعض المفسرين: (تكوير الشمس: فساد جرمها لتداخل ظاهرها في باطنها بحيث يختل تركيبها، فيختل نظام سيرها، من قولهم: (كور العمامة): إذا أدخل بعضها في بعض ولفها)[1].

وقيل: المعنى ـ هنا ـ **مجاز** عن رفعها وإزالتها عن مكانها، فإنّ الثوب إذا أريد رفعه يلف لفاً ويطوى ثم يرفع[2]، نحو قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾ [الأنبياء: 104] وذكر **الزمخشري** في تفسير لفظ (التكوير) وجهين: ـ

الأول: أن يكون من كورت العمامة إذا لففتها؛ أي: يلف ضوؤها لفاً فيذهب انبساطه وانتشاره في الآفاق، وهو عبارة عن إزالتها والذهاب بها؛ لأنها ما دامت باقية كان ضياؤها منبسطاً غير مألوف أن يكون لفها عبارة عن رفعها وسترها؛ لأن الثوب إذا أريد رفعه لف وطوى.

الثاني: أن يكون من طعنه فحوره وكوره إذا ألقاه؛ أي: تلقى وتطرح عن فلكها، كما وصفت (النجوم) بالإنكدار..)[3].

وما ذكره المفسرون يُطَابِقُ الدلالة اللغوية للفظة ـ (كور) ـ في المعاجم اللغوية فـ(التكوير): التلفيف على جهة الاستدارة، ومنه (كُورت العمامة على رأسي أكورها كوراً، وكورتها تكويراً) وكور الشيء: جمع بعضه على بعض ثم لف ورمى به؛ ويقال: طعنه فكوره إذا ألقاه مجتمعاً[4].

فالتكوير: يشمل إلقاء الشيء ثم اجتماعه على نفسه والالتفاف على جهة الإستدارة وإذا حدث هذا للشمس، صارت كالكرة الملقاة، طويت أشعتها وذهب

(1) روح المعاني ج 30/ 50.
(2) أساس البلاغة (كور).
(3) الكشاف ج 4/ 221.
(4) مجمع البيان في تفسير القرآن ج 30/ 39.

ضوؤها، أمّا قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتۡ﴾ فالفعل (انكدر) من (الانكدار)، مطاوع (كدّره).

وانكدار الشيء - في الأصل معناه الانصباب، يقال انكدر عليهم القوم؛ إذا جاؤوا إرسالاً فانصبوا عليهم[1].

ويقال: انكدر البازي على فريسته؛ يعني: انقض. ونقل عن ابن عباس رضي الله عنهما: انكدرت: انتشرت[2].

وقال الزمخشري (انكدرت): انقضت[3].

أي: (تساقطت وتناثرت، عن مجاهد وقتادة والربيع بن خيثم، يقال: انكدر الطائر من الهواء إذا انقض)[4].

وقيل: ﴿ٱنكَدَرَتۡ﴾: تغيرت من (الكدرة)[5].

أي: ضد الصفاء، فكأنَّ الانكدار؛ انقلاب الشيء، حتى يصير أعلاه أسفله، فلو كان ماء لتكدر وتغير لونه، أو أنَّه تفرقُ الشيء ثم تساقطه منصباً أو مجتمعاً على بعضه. وبعبارة أخرى فإن معنى قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتۡ﴾؛ أي: تغيرت وانطمس ضوؤها.

أو: تفرقت، وتساقطت، وذهب ضوؤها وتناثرت. وتساقطها أو تساقط بعضها على بعض إشارة من الإعجاز العلمي للقرآن الكريم تنبَّه إليها علماء الفلك المعاصرون؛ وهي: أن ذلك يحدث لاختلال نظام الجاذبية الذي جعله الله لإمساكها إلى أجل لا يعلمه إلا الله - سبحانه وتعالى. ويقول - تعالى - في سورة المرسلات: ﴿فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتۡ﴾ [المرسلات: 8].

---

(1) أساس البلاغة (كدر).
(2) معجم غريب القرآن (كدر) ص 178.
(3) الكشاف ج 4/ 221.
(4) مجمع البيان في تفسير القرآن ج30/ 38.
(5) روح المعاني 30/ 38.

أما قوله تعالى: ﴿طُمِسَتۡ﴾؛ فقال أهل المعاجم: (انطمس الشيء): معناه: إزالة أثره ومعالمه، ويستعمل لذهاب الضوء؛ فقال (نجم طامس؛ أي: ذاهب الضوء)[1]. فالطمس يشمل تغير معالم الشيء مع ذهاب ضيائه، وإلى مثل هذه الحقيقة أشار أهل التفسير، فقد نقل **عن ابن عباس** (رضي الله عنهما) قوله: طمس الكتاب؛ أي: محاه[2]. وذكر الزمخشري أنّ معنى قوله تعالى: ﴿طُمِسَتۡ﴾: (محيت، وقيل: ذهب بنورها ومحق ذواتها موافق لقوله (انتشرت) و﴿ٱنكَدَرَتۡ﴾ ويجوز أن يمحق نورها ثم تنتشر ممسوحة النور)[3].

ويبدو أن **جمهور المفسرين** متفقون على أن معنى قوله تعالى: ﴿طُمِسَتۡ﴾ (محقت، أو أذهب ضوؤها)؛ أي: محيت آثارها وأزيل ضوؤها، أو: أزيل أثرها بإزالة ضوئها أو بإعدام ذاتها، وإذهابها بالكلية، و(كل من الأمرين سيكون وليس من المحال)[4].

وإذا أنعمنا النظر في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتۡ﴾ [التكوير: 2]، وقوله عز وجل: ﴿فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتۡ﴾ [المرسلات: 8]، وأدركنا دلالة كل سياق، التي تشير بإيجاز إلى معنى **ذهب بنورها ومحق ذواتها**، أو **محيت آثارها وأزيل ضوؤها**، ثم وازنا هذه الدلالة مع معنى قوله عز وجل: ﴿وَإِذَا ٱلۡكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتۡ﴾ [الإنفطار: 2]؛ أي: تساقطت متفرقة تبيّن لنا أن النظم الكريم قد ميّز بين دلالة (النجوم) ودلالة (الكواكب) عندما تقوم الساعة؛ إذ إنَّ النجوم يذهب ضوؤها، وتتشقق فتتفرق أجزاؤها ثم تجمع على نفسها على جهة الاستدارة، وهذه صفات الكتل الغازية النارية المضيئة؛ لأنها عندما تبرد يخبو ضوؤها وتتجزأ ثم تتكاثف بالاجتماع بعضها على بعض وتكوين دقائق سائلة[5].

(1) أساس البلاغة (طمس).
(2) تفسير البيضاوي ج 3/ 237.
(3) الكشاف ج 4/ 203.
(4) روح المعاني ج 29/ 173.
(5) التفسير العلمي للآيات الكونية في القرآن الكريم: ص 153 ـ 154.

فتأمل هذه الإشارة العظيمة للإعجاز العلمي في القرآن الكريم يقول علماء الطبيعة المعاصرون (النجم ينكمش وترتفع كثافته، وقد تتأرجح إضاءته لتذبذبه بين التمدد والانكماش، ثم يتفجر النجم بعدها، ويقذف بطبيعته الخارجية في الفضاء ويبقى القلب.. وقد يكون الانفجار هائلاً ويتحول النجم كله إلى سديم..)[1].

أما (الكواكب)؛ فلا توصف بذهاب الضياء؛ بل هي - في يوم القيامة - مندثرة متشققة متفرقة - لخروجها من دائرة أفلاكها - مضطربة في الفضاء؛ لأنها أجسام جامدة فلم يصفها السياق الكريم بأنها ﴿ٱنكَدَرَتۡ﴾ أو ﴿طُمِسَتۡ﴾؛ - أي لم توصف بذهاب الضياء - لأنها أجسام جامدة مظلمة بذاتها، فتأمل عظمة الإعجاز المبين. ونقرأ من الآي الكريم مواضع تصرح بأنّ (النجم) مضيء، ومنها قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ * وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ * ٱلنَّجۡمُ ٱلثَّاقِبُ﴾ [الطارق: 1 - 3] فقد **آثر السياق** الكريم البدء **بأسلوب القسم** تحقيقاً لما يقسم عليه، وتشويقاً للجملة المقسم عليها. وجاء قسم الله - تعالى - بمخلوقين عظيمين من مخلوقاته، وفي ذلك دلالة على عظمة قدرة خالقهما، وهي (السماء) و(النجوم) أو (نجم) منها معروف أو ما يبدو انقضاضة من الشهب و﴿ٱلطَّارِقُ﴾ في اللغة؛ من: طرقني فلان إذا أتاني ليلاً. وأصل (الطرق): الدق ومنه (المطرقة)؛ لأنها يدق بها و(الطريق): لأن المارة تدقه و(الطارق) الآتي ليلاً يحتاج إلى الدق للتنبيه[2].

ثم اتسع معناه فصار يعني: كل ما يظهر بالليل كائناً من كان[3]. وقيل اختص عرفاً بالآتي ليلاً ثم استعمل للبادي فيه[4]. أمّا قوله عزَّ وجل: ﴿ٱلنَّجۡمُ ٱلثَّاقِبُ﴾: فـ﴿ٱلنَّجۡمُ﴾: خبر لمبتدأ محذوف تقديره (هو)؛ أي: الطارق النجم

---

(1) المنهج الإيماني للدراسات الكونية ص 263.

(2) معجم غريب القرآن (طرق) ص 121.
ينظر: أساس البلاغة (طرق). ومجمع البيان في تفسير القرآن ج 30/ 82. والمختار من تفسير القرآن الكريم ج 2/ 180.

(3) روح المعاني ج 30/ 44.

(4) تفسير البيضاوي ج 4/ 251.

الثاقب. وقد ذكر أهل التفسير في لفظ ﴿ٱلنَّجْمُ﴾ ثلاثة أوجه[1]:

الأول: يجوز أن يكون تعريف ﴿ٱلنَّجْمُ﴾ للجنس، فيستغرق جميع النجوم استغراقاً حقيقياً؛ أي: يراد به العموم وهو جماع النجوم، وكلها ثاقب، فكأنه قيل (والنجوم) لأن لكل نجم ضوءاً ثاقباً لا محالة.

الثاني: الإفراد في قوله تعالى: ﴿ٱلثَّاقِبُ﴾ ظاهر في إرادة فرد معين من النجوم فيجوز أن: ـ يكون التعريف للعهد، إشارة إلى نجم معروف يطلق عليه اسم النجم غالباً؛ أي: والنجم الذي هو طارق.

ويناسب أن يكون نجماً يطلع في أوائل ظلمة الليل، وهو الوقت المعهود لطروق الطارقين من السائرين. **وعن ابن عباس** (رضي الله عنهما): أنه (الجدي)، وقيل هو (زحل) وقيل ـ أيضاً ـ إنَّه (الثريا)؛ والعرب تسميه (النجم) أو: هو النجم الذي يسمى (الشاهد) وهو نجم يظهر عقب غروب الشمس وبه سميت صلاة المغرب (صلاة الشاهد).

الثالث: ﴿ٱلطَّارِقُ﴾ نوع من (الشُّهب): لأن (الشهاب) ينقضّ فيلوح كأنه يجري في السماء كما يسير السائر إذا أدركه الليل: فالتعريف في لفظ ﴿ٱلنَّجْمُ﴾ للاستغراق وخصه بوقوعه خبراً عن ضمير ﴿ٱلطَّارِقُ﴾؛ بمعنى عبر عنه بوصف عام ثم فسره بما يخفيه تفخيماً لشأنه؛ أي: أنَّ (الشهاب) عند انقضاضه يرى سائراً بسرعة ثم يغيب عن النظر فيلوح كأنه استقر، فأشبه إسراع السائر ليلاً ليبلغ إلى الأحياء المعمورة، فإذا بلغها وقف سيره[2].

والظاهر أن الوجوه الثلاثة متفقة على أن (النجوم) أو (النجم) أو (الشهاب): أجرام ـ أو جرم ـ مضيئة بذاتها، ومتقدة ناراً. ومعنى ﴿ٱلثَّاقِبُ﴾: المضيء النافذ، أو شديد الإضاءة والتلألىء، أو المتوقد.

---

(1) التحرير والتنوير ج 30/ 259. ينظر ـ أيضاً ـ: روح المعاني ج 30/ 95.

(2) التحرير والتنوير ج 30/ 259.

يقول الزمخشري في تفسيره قوله تعالى: ﴿ٱلنَّجْمُ ٱلثَّاقِبُ﴾ (الثاقب: المضيء، كأنه يثقب الظلام بضوئه فينفذ فيه، كما قيل درّيء: لأنه يدرؤه؛ أي: يدفعه، وقيله دُرِّي منسوب إلى (الدّر). ووصف بالطارق؛ لأنه يبدو بالليل كما يقال للآتي ليلاً: (طارق) أو: لأنه يطرق الجني؛ أي: يصكه والمراد جنس النجوم، أو جنس الشهب التي يرجم بها)[1].

ونعود إلى النظم الكريم لنحاول الغوص في أعماقه لعلنا نلتقط شذرة من كنوزه العظيمة.

فأنت ترى أنه قد أبهم الموصوف ابتداء ﴿وَٱلطَّارِقِ﴾ ثم زيد إبهاماً مشوباً بتعظيم أمره بقوله: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ﴾؛ أي: الحق ـ سبحانه وتعالى ـ يلفتنا بقوله: ﴿وَٱلطَّارِقِ﴾ إلى شيء ننتفع بآثاره، ثم يدلنا على أن ﴿ٱلطَّارِقُ﴾ هذا أمر لا يمكن للعقل البشري وحده أن يعرفه، ولذلك يقول فيه ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ﴾: والقول الكريم جملة **استفهامية مجازية** أفادت تعظيم الأمر؛ يعني: أي شيء أعلمك بذلك الطارق؟ ثم يعرفنا الحق ـ سبحانه وتعالى ـ فيقول: ﴿ٱلنَّجْمُ ٱلثَّاقِبُ﴾. فكأن النظم الكريم آثر هذا النسق ليحصل من ذلك مزيد تقرر للمراد بالمقسم به وهو أنه من جنس النجوم. إذ شبّه طلوع النجم ليلاً بطروق المسافر الطارق بيتاً بجامع كونه ظهوراً في الليل. **يقول الزمخشري**[2]: فإن قلت: ما يشبه قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ * ٱلنَّجْمُ ٱلثَّاقِبُ﴾ إلاّ ترجمة كلمة بأخرى، فبيّن لي أي فائدة تحته؟ قلت: أراد الله ـ عز من قائل ـ أن يقسم بالنجم الثاقب، تعظيماً له لما عرف فيه من عجيب القدرة ولطيف الحكمة، وأن نبّه على ذلك فجاء بما هو صفة مشتركة بينه وبين غيره، وهو ﴿ٱلطَّارِقُ﴾، ثم قال تعالى: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ﴾ ثم فسره بقوله عز وجل: ﴿ٱلنَّجْمُ ٱلثَّاقِبُ﴾ كل هذا إظهار لفخامة شأنه، كما قال تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ * وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ [الواقعة: 75 ـ 76].

(1) الكشاف ج 4/ 240 ـ 241.
(2) الكشاف ج 4/ 241.

ثم تأمل كيف سلك النظم الكريم في قوله تعالى: ﴿ٱلنَّجۡمُ ٱلثَّاقِبُ﴾؛ **أسلوب الاستعار** فأصل الثقب: خرق شيء ملتئم، فتقول (ثقب القداح عينه ليخرج الماء النازل)[1].

وقد استعير اللفظ ـ هنا ـ لظهور الضوء من خلال ظلمة الليل، (فكأنه يثقب الظلمة فينفذ فيها ويدرؤها)؛ أي: شبه (النجم) بمسمار أو نحوه، وظهور ضوئه بظهور ما يبدو من السماء من خلال الجسم الذي يثقبه مثل لوح أو ثوب. يقول الشيخ الطاهر بن عاشور (هذه الصورة البيانية في **استعارة** الثقب لبروز شعاع النجم في ظلمة الليل ـ في هذه الآية الكريمة ـ، وفي قوله عز وجل: ﴿فَأَتۡبَعَهُۥ شِهَابٞ ثَاقِبٞ﴾ [الصافات: 10] من مبتكرات القرآن ولم يرد في كلام العرب قبل القرآن)[2].

ومثله قوله تعالى: ﴿وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمۡ وَأَنۡهَٰرٗا وَسُبُلٗا لَّعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ * وَعَلَٰمَٰتٖۚ وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ﴾ [النحل: 15 ـ 16]، فإن قوله تعالى ﴿وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ﴾ معطوف على قوله: ﴿وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ﴾؛ لأن في معنى: وهداكم بالنجم فأنتم تهتدون به. وهذه منّة بالاهتداء في الليل؛ لأن السبيل و(العلامات)؛ أي: الإمارات التي ألهم الله الناس أن يضعوها أو يتعارفوها لتكون دلالة على المسافات والمسالك المأمونة في البر والبحر فتتبعها السابلة، إنما تهدي في النهار، وقد يضطر السالك إلى السير ليلاً فمواقع النجوم ـ وهي كما ذكر جمهور المفسرين أجسام مضيئة في الأفق[3] ـ علامات لاهتداء الناس السائرين ليلاً تعرف بها السمٰوات، وأخص من يهتدي بها البحارة؛ لأنهم لا يستطيعون الإرساء في كل ليلة، فهم مضطرون إلى السير ليلاً، وهي دلالة عظيمة في وقت ارتباك الطريق على السائر، ولذلك قدم المتعلق في قوله تعالى:

(1) أساس البلاغة (ثقب).
(2) التحرير والتنوير ج 30/ 259.
(3) التحرير والتنوير ج 14/ 123.

﴿وَبِٱلنَّجۡمِ﴾ تقديماً يفيد الاهتمام وكذلك بالمسند الفعلي في قوله تعالى: ﴿هُمۡ يَهۡتَدُونَ﴾؛ أي: لمجرد تقوي الحكم فالتقديم ـ هنا ـ أفاد الاهتمام وتقوية الحكم، وهذا رأي **بعض المفسرين**. والمراد بـ﴿ٱلنَّجۡمُ﴾ الجنس؛ أي: عموم النجم، كقولك (كثر الدراهم في أيدي الناس).

ويدل على ذلك قراءة بـ﴿ٱلنُّجُمُ﴾ ـ بضمتين، وضمة وسكون على الجمع ـ والمقصود منه النجوم التي تعارفها الناس للاهتداء بها مثل القطب، وقيل: (بالنجم)؛ أي: بالفرقدين والجدي وقيل: الثريا والفرقدان وبنات نعش والجدي. وإذا أنعمنا النظر في قوله تعالى: ﴿وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ﴾ تنبهنا إلى تفرد النظم الكريم بنسق كريم، هو الآخر (من مبتكرات القرآن الكريم ولم يرد في كلام العرب قبل القرآن) فقد خرج السياق عن سنن الخِطاب، وتقدم لفظ ﴿ٱلنَّجۡمُ﴾، وأقحم الضمير ﴿هُمۡ﴾ كأنه قيل وبالنجم خصوصاً هؤلاء خصوصاً يهتدون فمن المراد بهم؟ يقول الزمخشري (كأنه أراد قريشاً كان لهم اهتداء بالنجوم في مسايرهم، وكان لهم بذلك علم لم يكن مثله لغيرهم، فكان الشكر أوجب عليهم والاعتبار ألزم له فخصصوا)[1].

فظاهر **كلام الزمخشري** أن النظم الكريم جاء بأسلوب القصر لإفادة التخصيص. وقال تعالى: ﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ﴾ [النجم: 1]، الكلام موجه من الله ـ سبحانه وتعالى ـ إلى المشركين الطاعنين في رسالة محمد ﷺ وقد أقسم ـ عز وجل ـ بعظيم من مخلوقاته دالٌّ على عظيم صفات الله ـ عز شأنه ـ وقيل: إنَّ الله أقسم بالقرآنَ إذ أُنزل نجوماً متفرقة على رسول الله ﷺ في ثلاث وعشرين سنة؛ أي: القرآن المنزل المنجم قدراً فقدراً، ومعنى قوله تعالى: (نزوله) أو: أراد بالنجم (الثريا)؛ لأنهم كانوا يوقنون بأزمان طلوعها مواقيت الفصول ونضج الثمار؛ أي: أقسم بالثريا إذا سقطت وغابت مع الفجر والعرب تطلق اسم (النجم) على الثريا خاصة.

---

(1) الكشاف ج 2/ 405.

وقيل: (النجم) الشعرى ـ اليمانية، وهي العبور، وكانت معظّمة عند العرب أو: المراد جنس النجوم؛ أي: جماعة النجوم إذا هوت؛ أي: سقطت وغابت وخفيت ـ كقوله تعالى ﴿وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [النحل: 16].

وقال الراعي:

وبات يعدّ النجمَ في مستحيرة   سريعٌ بأيدي الآكلين جمودها

أو يعني بـ (النجم): الرجوم من النجم، وهو ما يرمى به الشياطين عند استراق السمع؛ أي: النجم؛ هو (الشهاب)[1].

أما قوله تعالى: ﴿هَوَىٰ﴾: فأصل معناه: النزول والسقوط، ومنه سميت (الهاوية) لأنها تهوى بأهلها من أعلاها إلى أسفلها. والظاهر أن في لفظ ﴿هَوَىٰ﴾، معنى الغياب والأفول، وفي ذلك إشارة إلى طلوعه؛ لأن ما يأفل يطلع، فاستدل بأفوله وطلوعه على وحدانية الله ـ تعالى ـ، وحركات النجوم توصف بالهوي ويجوز أن يراد بـ(الهوي)؛ سقوط الشهاب حين يلوح للناظر أنه يجري في أديم السماء، فهو (هوي) حقيقي. ويبدو أن الوجوه السابقة تشير إلى جواز استعمال لفظ (هوى) بدلاليته الحقيقية والمجازية وقد أوجز الزمخشري ذلك بقوله: (معنى قوله تعالى: ﴿إِذَا هَوَىٰ﴾: إذا أغرب، أو انتشر يوم القيامة؛ أو: النجم الذي يرجم به إذا هوى، إذا انقض)، وإذا تدبرنا الأوجه السابقة لدلالة النص الكريم استطعنا تسجيل الملاحظات الآتية:

أولاً: إذا قصد بـ ﴿ٱلنَّجْمُ﴾، أنه القرآن المنّزل (لتفرقه في النزول، والعرب تسمي التفريق تنجيماً والمفرق منجماً)[2].

---

(1) ينظر: تنوير المقباس في تفسير ابن عباس ص 331، معجم غريب القرآن (هوى)، الكشاف ج 4/ 27، تفسير البيضاوي ج 4/ 171، روح المعاني ج 27/ 44 ـ 45، وفتح البيان في مقاصد القرآن ج 9/ 157 ـ 158.

(2) المفردات في غريب القرآن (نجم).

فإن قوله تعالى ﴿هَوَىٰ﴾ ـ بمعنى ـ (نزل): وتكون مناسبة القسم بـ(النجم إذا هوى)؛ أن الكلام مسوق لاثبات أن القرآن وحي منزل من السماء ـ والوحي إلقاء المعنى إلى النفس في خفية، إلا أنه صار كالعلم فيما يلقيه الملك إلى النبي من البشر عن الله ـ فتشابه حال النزول بحال النجم في حالة هويه مشابهة تمثيلية حاصلة من نزول شيء منير إنارة معنوية نازل من محل رفعة معنوية، مشبه بحال نزول نجم من أعلى الأفق إلى أسفله وهو من تمثيل المعقول بالمحسوس.

ثانياً: إذا قصد بـ(النجم)؛ جنس النجوم، يكون قوله تعالى: ﴿إِذَا هَوَىٰ﴾ إشعاراً بأن النجوم كلها مسخرات لقدرة الله مسيرة في نظام أوجدها عليه ولا اختيار لها، فليست أهلاً لأن تعبد، فحصل المقصود من القسم بما فيه من الدلالة على القدرة الإلهية، مع الإحتراس عن اعتقاد عبادتها ولأن ما يأفل من النجوم يطلع، ففي ذلك دلالة أخرى على قدرة الله ووحدانيته.

ثالثاً: إنّ تقييد القسم بـ(النجم) بوقت غروبه لإشعار غروب ذلك المخلوق العظيم يعد أوجه في شرف الارتفاع في الأفق على أنه مسخر بقدرة الله ـ تعالى ـ أي: في قوله تعالى: ﴿إِذَا هَوَىٰ﴾: أحتراس من أن يتوهم المشركون أنّ القسم بالنجم إقرار لعبادة نجم معين ﴿ٱلشِّعْرَىٰ﴾، وأنه (اعتراف) بأنه (إلٰه)، إذ كان بعض قبائل العرب يعبدونها؛ فإنّ حال الغروب المعبر عنها بـ(الهوى) حالة انخفاض ومغيب في تخيل الرائي لأنهم يعدون طلوع النجم أوجاً لشرفه ويعدون غروبه حضيضاً[1].

ولذلك قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْآفِلِينَ﴾ [الأنعام: 76]، ومن مناسبات هذا يجيء قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ﴾ [النجم: 49]؛ أي: الله ـ تعالى ـ خالق الشِّعرى ومالكها ومسيرها، فلا تتخذوا المربوب المملوك إلٰهاً فجاء القول بأسلوب القصر بضمير الفصل ﴿هُوَ﴾، ليفيد مربوبية الشِّعرى على الله

(1) التحرير والتنوير ج 27/ 92.

ـ تعالى ـ وذلك كناية عن كونه ربَّ ما يعتقدونه أنه تصرفات الشعرى؛ أي: هو رب تلك الآثار ومقدرها وليست الشعرى ربة تلك الآثار المسندة إليها مزاعمهم و﴿ٱلشِّعۡرَىٰ﴾ اسم نجم من نجوم برج الجوزاء(1).

وقيل خلف الجوزاء ـ شديد الضياء، ويسمى (كلب الجبار)؛ لأن (الجوزاء) تسمى الجبار عند العرب ـ أيضاً ـ وسميت (الجوزاء) لشدة بياضها في سواد الليل تشبيهاً له بالشاة (الجوزاء) وهي الشاة السوداء التي وسطها أبيض وقيل: إن (الشعرى) لم يعبدها من قبائل العرب إلا خزاعة(2).

وقد وصفها الشعر العربي، فقال ابن مقبل:

وعرسن والشعرى تقور كأنَّها   شهاب غضا يرمي به الرجوان(3)

وقال الشماخ بن ضرار الغطفاني في وصف ضوئها:

لليلى بالغميم ضوء نارٍ   تلوح كأنَّها الشعرى العبور(4)

وقال الفرزدق:

وأوقدت الشعرى مع اللِّيل نارها   وأمست محولاً جلدها يتوسف(5)

فالشعراء يصفونها بأنها (شديدة الضياء، متوقدة ككتلة من نار) وقال أهل الفلك: (إن هذا النجم إذا ما طلع يبدو مستقلاً مما حوله من نجوم بسبب ضيائه النافذ الشديد، ولذا فإنَّه يتخذ مع غيره من النجوم المميزة دليلاً على أوقات

(1) برج الجوزاء: مجموعة من نجوم لها أسماء خاصة عند العرب، وكانوا يتخيلون نجومها صورة رجل واقف بيده عصا وعلى وسطه سيف ولذلك سموه (الجبار) ينظر: التحرير والتنوير ج27/ 150.

(2) ينظر: الكشاف ج 3/ 34، والتحرير والتنوير ج 27/ 150.

(3) ديوان ابن مقبل ـ تحقيق ـ عزة حسن ـ ص 69.

(4) ديوان الشماخ ـ ص 32.

(5) جمهرة أشعار العرب ج 2/ 876.

الإقامة والتربع والترحال. .، وباستطاعة الناظر أن يهتدي إلى هذا النجم حتى بعد انهزام خيوط الظلام أمام شعلة الصباح)[1].

رابعاً: «الشهب»

وردت لفظة الـ(الشهاب) في خمسة مواضع من القرآن الكريم، ومنها قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ * وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ * إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ﴾ [الحجر: 16 ـ 18].

فقد سلك النص الكريم أسلوب التوكيد بـ(لام) القسم وحرف التحقيق (قد) ـ الجملة المصدرة بـ(لقد) عدّها النحاة جوابَ قسم محذوفٍ ـ تنزيلاً للمخاطبين ـ الذاهلين عن الاستدلال بذلك، منزلة المتردد فأكّد لهم الكلام بأداتي توكيد، والتقدير: (واللّٰهِ إنَّ في السماء لعبراً منصوبة غير هذه المذكورة، وكفرهم بها وإعراضهم عنها، إصرار منهم وعتواً) والظاهر أنَّ الفعل (جعل)، بمعنى: خلق وأبدع، والجار والمجرور متعلق به، ويجوز أن يكون بمعنى (التصيير) فهو متعلق بمحذوف على أنه مفعول ثان له، و﴿بُرُوجًا﴾؛ مفعوله الأول[2].

و(البروج) المنازل العالية، أو البناء الكبير المتخذ للسكنى؛ أي: (القصر) أو للتحصن؛ أي: (الحصن)، قال تعالى: ﴿وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ [النساء: 78].

والمراد ـ هنا ـ (البرج السماوي): الذي يتألف من مجموعة من النجوم قريب بعضها من بعض أما أهل التفسير؛ فذكر بعضهم أنها (الكواكب)، ونقل عن ابن عباس (رضي الله عنهما) أنها الشمس والقمر[3]. وعن الحسن وقتادة؛ هي النجوم[4]، وقيل إنّها (الكواكب السيارة)[5].

---

(1) النجوم في الشعر العربي ص 88.
(2) روح المعاني ج 14/ 21.
(3) معجم غريب القرآن ص 12.
(4) البحر المحيط ج 5/ 448.
(5) روح المعاني ج 14/ 21.

وفي القرآن الكريم ورد لفظ البروج في أربعة مواضع، منها قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ﴾ [البروج: 1]، والقسم بـ﴿وَٱلسَّمَآءِ﴾ بوصف ﴿ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ﴾ يتضمن قسماً بالأمرين، لتلتفت أفكار المتدبرين إلى ما في هذه المخلوقات وهذه الأحوال من دلالة على عظيم القدرة وسعة العلم الإلهي، إذ خلقها على تلك المقادير المضبوطة لينتفع بها الناس في مواقيت الأشهر، ومثله قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا﴾ [الفرقان: 61]، فقد افتتح النص الكريم بإنشاء الثناء على الله ـ تعالى ـ بالبركة والخير لما جعله للخلق من منافع ودلالة خلق البروج وخلق الشمس والقمر على عظيم القدرة دلالة بيِّنة للعاقل، وكذلك دلالته على دقيق الصنع ونظمه بحيث لا يختل ولا يختلف حتى تسنى للناس رصد أحوالهم وإناطة حسابهم بها[1].

لذلك أقام الله ـ عز وجل ـ الاستدلال على عظيم قدرته وانفراده بالخلق؛ لأن العرب قد عرفوا دقائقهم ونظامهم الذي تهيأت به لأن تكون وسيلة ضبط المواقيت بحيث لا تُخلف ملاحظة راصدها. ﴿وَزَيَّنَّـٰهَا﴾؛ أي: السماء بما فيها من الكواكب السيارة وغيرها من النجوم النيّرات كما ترى بعضها من الأرض، ولا يعلم عددها إلّا الله، ﴿لِلنَّـٰظِرِينَ﴾: المعتبرين، المستدلين بها على قدرة مبدعها وتوحيد صانعها وحكمة مدبرها ـ جَلَّ شأنه ـ ﴿وَحَفِظْنَـٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَـٰنٍ رَّجِيمٍ﴾ المراد بالحفظ من الشياطين: الحفظ من استقرارها وتمكنها من السمٰوات و(الرجيم): المحقر، ويطلق (الرجم) على الرمي بالرجام، وهي (الحجارة)، وقيل المراد بـ (الرجيم): المرمى بالنجوم، ويطلق ـ أيضاً ـ على الإهلاك، والقتل الشنيع[2].

وقال أبو حيان: (حفظ السماء هو بالرجم بالشهب على ما تضمنته الأحاديث الصحاح) ﴿إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ﴾، (الاستراق): افتعال من السرقة، وهي

(1) التحرير والتنوير ج 1/ 64.
(2) روح المعاني ج 14/ 23.

أخذ الشيء بخفية من المتحدث، كأن المستمع يسرق من المتكلم كلامه الذي يخفيه عنه؛ أي: إلّا من مكنته صدفة من أن يسترق أو يسمع خفية شيئاً من أبناء الوحي، ثم يفر به إلى الكهان، وقيل (ظاهر الآية لا يقتضي أكثر من تحكك مسترق السمع على السمٰوات لتحصيل انكشافات جُبِل المسترق على الحرص على تحصيلها)، ﴿فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ . .﴾ ﴿فَأَتْبَعَهُۥ﴾؛ أي: تبعه، و(الشهاب): الشعلة الساطعة من النار الموقودة ومن العارض في الجو، ويطلق على الكوكب، لبريقه كشعلة النار[1].

وأصله (الشهبة: وهي بياض مختلط بسواد)[2].

و(المبين): الظاهر البيِّن، ومعنى القول الكريم: (أنه (من يسترق السمع)) من الشياطين، يندفع وراءه شهاب واضح للأنظار ليمنعه من قضاء غرضه؛ أي: أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ قضى أن يحفظ السماء من استماع الشياطين فيها إلى الملائكة في زمن البعثة المحمدية، وأن من يسمع شيئاً من كلام الملائكة خلسة، ثم يهرب به هابطاً إلى الأرض ليبلِّغه إلى الكهان، أتبعه شهاب (واضح) للأنظار، ويفهم من سياق العبارة القرآنية أن (الشهاب) وهو في السماء لا يكون (ثاقباً) أي: شديد الإضاءة والتلألىء، لكنه حين يتبع الشيطان الرجيم الذي استرق أنباء الوحي خفية، فأراد تبليغها إلى الكهان، يصير ثاقباً؛ أي: متقداً ساطعاً كشعلة من النار عندما يتخلل جو الأرض في اتباعه للشياطين الخاطفة لكلام الملأ الأعلى، ونستشرف من السياق الكريم الإشارتين الآيتين:

الإشارة الأولى: يقول **علماء الطبيعة** (إن الشهب: أجرام سماوية صغيرة الحجم تنتشر في الطبقات العليا مِنَ الأرض وترى بالليل بسرعة رهيبة ويصدر عنها وميض خاطف، وتفسير هذه الظاهرة ـ عندهم ـ هو: أن الشهب تدخل المجال الجوي للأرض بسرعة (2220) ميلاً في الدقيقة مما يؤكد احتراقها

---

(1) مفردات في غريب القرآن (الشهب).

(2) أساس البلاغة (شهب).

واشتعالها حين تحتك بذرات الهواء، وينتج عن ذلك وميض خاطف يراه سكان الكوكب الأرضي ليلاً في صفحة السماء، والشهاب عقب اشتعاله ينطفيء ويصير غباراً في شكل أجسام هشة للغاية؛ أي: أن قصة الشهب لا تنتهي باشتعالها في طبقات الجو العليا في السماء الدنيا، وإنما تخلف وراءها ذيولاً من جسيمات دقيقة وغبار متهبط إلى سطح الأرض بهدوء..)[1].

واستطاع بعضهم تفسير إحدى عجائب هذه (الشهب)، إذ توصل إلى أن (سرعتها الهائلة هي السبب في حمايتنا منها لأنها في اندفاعها في الهواء الجوي بتلك السرعات المخيفة تلقى منه مقاومة عنيفة تقلل من سرعتها، ومن أثر الاحتكاك بالهواء تسخن إلى درجة الابيضاض، ويتبخّر بعضُ كُتّلها أو جميعاً إلى دخان أو تراب دقيق قبل أن تصل إلى الأرض)[2]، وصدق الله العظيم إذ يقول ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا﴾ [الأنبياء: 32]، فالغلاف الجوي للأرض يحمينا من شر هذه الشهب المحترقة ومن شرِّ النيازك قبل أن تقع على الأرض، فيمتص معظم الجسيمات الضارة كالأشعة الكونية ومعظم الإشعاعات القاتلة كالأشعة فوق البنفسجية، وغيرها القادمة من الفضاء فهو عز وجل: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۚ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ﴾ [سبأ: 2]، فأنت ترى أنّ العلم يشهد بصدق ما سبقه إليه الإعجاز المبين، فالشهاب لا يكون مضيئاً - أي مصدراً للضوء - إلا إذا احترق وذلك بدخوله المجال الجوي للأرض، ثم ألا ترى أن السياق الكريم قد وصف الشهب وصفاً كلياً شاملاً، وما زال العلم يتناول بعض الجزئيات المندرجة تحت الوصف القرآني الشامل فمدلول الآية الكريمة التي تناولت (الشهب) ما زالت أسرارها أوسع من بحوث العلماء.
- فسبحان الله الخالق المبدعُ المصوّر -.

الإشارة الثانية: إنَّ أصل (الشهاب)؛ جسم مظلم - غير مضيء ولا متقد -

(1) المنهج الإيماني للدراسات الكونية ص 205.
(2) التفسير العلمي للآيات الكونية ص 184.

ويؤكد ذلك قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا﴾ [الجن: 8].

ولكننا نتنبّه إلى إشارة عظيمة بليغة، هي: أننا نجد أن السياق الكريم يخص هذه (الشهب) بوصف معين حسب الموقف المطلوب، واستجابة لمقتضى الحال والمقام كما في قوله تعالى في سورة الجن (نفسها)، ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْءَانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا﴾ [الجن: 9]، وسنأتي إلى تفصيل معنى الآيتين في الصفحات القادمة.

ومثله قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ﴾ [الحجر: 18]؛ أي: من الشهب العارضة المارقة في جو الناس وخاصة بالليل، ويؤيد ذلك - أيضاً - قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ [النمل: 7]؛ أي: اذكر يا (محمد ﷺ)، زمن قال موسى لأهله... يقول الشيخ الطاهر بن عاشور في تفسير الآية الكريمة: إنّ مناسبة موقعها هي إفادة تنظير تلقي النبي ﷺ القرآن الكريم بتلقي موسى عليه السلام كلام الله إذ نودي ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [النمل: 9]، وذلك من بديع التخلص إلى ذكر قصص هؤلاء الأنبياء عقب التنويه بالقرآن، وأنه من لدن حكيم عليم، والمعنى: (أنَّ الله يقص عليك من أنباء الرسل ما فيه مَثَلٌ لك ولقومك وما يثبت به فؤادك)(1).

(والأهل): مراد به (زوجه)، وقد كنى الله - تعالى - عنها بالأهل فتبع ذلك ورود الخطاب على لفظ الجمع، وهو قوله تعالى: ﴿ٱمْكُثُوٓاْ﴾، و(الإيناس): الإحساس والشعور بأمر خفي، فيكون في المرئيات وفي الأصوات و(الخبر): خبر المكان الذي تلوح منه النار؛ أي: الخبر عن حال الطريق لأن من يذهب لضوء نار على الطريق يكون كذلك و(السين) في قوله تعالى ﴿سَـَٔاتِيكُم﴾: للدلالة على بعد المسافة والوعد بالإتيان وإن أبطأ ﴿أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ﴾، يقول

(1) التحرير والتنوير ج 19/ 225.

الزمخشري في تفسيره النص الكريم (الشهاب: الشعلة، والقبس: النار المقبوسة وأضاف (الشهاب) إلى (القبس) ـ وهي قراءة الجمهور ـ لأنه يكون قبساً وغير قبس)[1].

وقيل: إضافة ﴿شِهَابٌ﴾ إلى ﴿قَبَسٍ﴾؛ إضافة العام إلى الخاص، أو إضافة النوع إلى جنسه، مثل: خاتم فضة، ثوب جز، بمعنى (من)؛ أي: شهاب من قبس، ومعنى ذلك ـ كما يقول المفسرون ـ (إنَّ الشهابَ يكونُ قَبَساً؛ أي: مضيئاً، وغيره، كالكوكب)[2].

وقرأ (عاصم) و(حمزة) و(الكسائي)، وغيرهم: بتنوين (شهابٍ) بدلاً من (شهابٍ) فيكون ﴿قَبَسٍ﴾ بدلاً من (شهاب) أو نعتاً له؛ أي: شهاب مقتبس؛ أي: مأخوذ من نار[3]. أما قوله تعالى: ﴿تَصْطَلُونَ﴾: فهو من (الصلي) وهو الشي بالنار ودلّت صيغة (الافتعال) على أن محاولة الصلي، فصار بمعنى التدفئة بوهج النار.

فأنت ترى أن السياق الكريم لم يكتفِ بذكر لفظ (شهاب)؛ بل خصّه بوصف ﴿قَبَسٍ﴾ ليبين أنه شهاب كشعلة من نار لكي (يتدفؤوا)، فـ(القبس) ـ كما ذكرنا ـ شعلة من نار يقتبسها الشخص، فهذا دليل آخر نستلهمه من السياق الكريم وهو أن (الشهاب) لا يفيد أنه شعلة من نار إلّا إذا وصف بصفة تفيد ذلك، مثل (قبس).

أو مثل ﴿ثَاقِبٌ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ * إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ [الصافات: 9 ـ 10]، و(الخطف): ابتدار تناول شيء بسرعة.

و﴿الْخَطْفَةَ﴾: المرة منه، فهو مفعول مطلق لـ(خطف) لبيان عدد مرات

(1) الكشاف ج 3/ 137.
(2) الفتوحات الإلهية ج 3/ 298. ينظر أيضاً: تفسير البيضاوي 3/ 264.
(3) التحرير والتنوير ج 19/ 225.

المصدر؛ أي: خطفة واحدة، وهو ـ هنا ـ مستعار للإسراع بسمع ما يستطيعون سمعه من كلام غير تام[1]. كقوله تعالى: ﴿يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ﴾ [البقرة: 20].

يقول البيضاوي (الخطف): الاختلاس، والمراد: اختلاس كلام الملائكة مسارقة ولذلك عرَّف ﴿ٱلْخَطْفَةَ﴾[2]، أو أَخَذَهَا بسرعة[3].

و(أتبعه) بمعنى (تبعه)؛ فهمزته لا تفيد تعديه، وهي كهمزة (أبان) و(بان).

أما (الشهاب): ـ فقد ذكرنا في مواضع سابقة ـ فهو عارض معروف في الجو يرى كأنه كوكب منقض من السماء، كشعلة ساطعة من النار الموقدة[4]، وقلنا ـ أيضاً ـ فيما سبق أن (الثاقب): هو (المضيء، يقال: أثقب نارك للموقد)[5]، وهذا رأي ابن عباس رضي الله عنهما، وذكر الزمخشري: أنّ (الكوكب الثاقب): شديد الإضاءة والتلأليء، كأنه يثقب الظلمة فيها ويدرؤها[6].

ويفهم من عبارة الزمخشري ـ وغيره ـ أن (الثاقب): الذي يترك ثقباً في الجسم الذي يصيبه أي هو: (الخارق)، أو: (الثاقب)، المتوقد[7]، أو: المضيء، كأنه يثقب الجو بقدرته ولعل من المفيد أن نشير إلى أن بعض المفسرين قد ذهب إلى أن (الشهب): (ليست ﴿ٱلْكَوَاكِبِ﴾ ـ نفسها ـ التي زينت بها السماء؛ فإنّها لا تنقض وإلّا لانتقصت زينة السماء بل لم تبق، على أن المنقض إنْ كان نفس الكوكب بمعنى أنه ينقلع عن مركزه ويرمي به الخاطف فيرى لسرعة الحركة كرمح من نار لزم أن يقع على الأرض)[8].

---

(1) التحرير والتنوير ج 23/ 93.
(2) تفسير البيضاوي ج 4/ 73.
(3) الفتوحات الإلهية ج 3/ 531.
(4) روح المعاني ج 23/ 71.
(5) معجم غريب القرآن «ثقب».
(6) أساس البلاغة (ثقب).
(7) روح المعاني ج 23/ 71.
(8) المصدر السابق.

وذكر آخرون؛ أنه ليس المراد أنهم يرمون بأجرام الكواكب؛ بل يجوز أن ينفصل من الكوكب شعلة يرمى بها الشيطان والكوكب باق على حاله.

وهذا كمثل القبس الذي يؤخذ من النار وهي على حالها[1]، يقول د. مصطفى الجويني: وقد تضاربت أقوال العلماء قبل أوائل القرن التاسع عشر عن (الشهب) و(النيازك) فمنهم (من قال إنها تأتي من القمر ومنهم من قال: بل هي من الأرض ثم طرأت عليها تكوينات، فإذا دخلت مجال الجاذبية الأرضية هبطت إلى الأرض، والحقيقة في هذا أن الشهب والنيازك مواد حجرية أو معدنية، منها ما يظل في الفضاء سابحاً ودائراً حول الشمس كمواد ملتهبة، فإذا انتقل إلى الفضاء الأرضي احترق وهبط إلى الأرض ويسمى حينئذ (النيزك). أما إذا ظل دائراً حول الشمس فهو ﴿شِهَابٌ﴾، والشهب مواد انفصلت عن الشمس والكواكب الشمسية)[2].

يقول تعالى في سورة «الجن»: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا * وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْءَانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا﴾ [الجن: 8 ـ 9].

فالعبارة القرآنية الكريمة آثرت التوكيد بـ(أن) ـ في الآيتين ـ (لغرابة الخبر باعتبار ما يليه)[3].

ومعنى (اللمس)؛ المس، فاستعير للطلب؛ لأن (الماس): طالب متعرف، يقال: (لمسه) و(التمسه) و(تلمسه)، كطلبه، وأطلبه، وتطلبه، ونحوه: الجس وقولهم: حبسوه بأعينهم وتجسسوه، والمعنى: طلبنا بلوغ السماء واستماع كلام أهلها[4].

(1) الفتوحات الإلهية ج 3/ 531.
(2) جماليات المضمون والشكل ص 112 ـ 113.
(3) التحرير والتنوير ج 29/ 227.
(4) الكشاف ج 4/ 168.

وقيل: (اللمس): حقيقته (الجس باليد)، ويطلق مجازاً على اختبار أمر لأن إحساس اليد أقوى إحساس، فشبّه به الاختبار على طريق الاستعارة، و﴿مُلِئَتْ﴾ مستعمل في معنى (كثير فيها)، وحقيقة الملء عَمْر فراغ المكان أو الإناء بما يحل فيه، فأطلق ـ هنا ـ على كثرة (الشهب) و(الحراس) على وجه الاستعارة، و(الحرس): اسم جمع في معنى (الحرّاس) ولا واحد له من لفظه مثل (خدم)، وقد وصف بـ(شديد)؛ وهو مفرد، نظراً إلى لفظ (حرس)، كما يقال: السلف الصالح، والمراد بـ(الحرس) ـ في الآية الكريمة ـ الملائكة عليهم السلام الذين يمنعونهم عن قرب السماء، و(الشديد) هو: القوي، ولو روعي معناه لَجُمِع بأن يقال: شداداً، وقد احتفظ لفظ ﴿الشهب﴾ ـ بدلالته التي مرّ ذكرها ـ وهي: القطعة التي تنفصل عن بعض الكواكب فتسقط متوقدة عند انفصالها، ويزول ضوؤها في ثوان. وربما هي نفسها التي تسمى عند علماء الفلك (نَيْزَكاً)، أو الرمح القصير[1].

وهذا قريب مما ذهب إليه أغلب المفسرين في تفسيرهم للشهاب بأنه (المضيء المتولد من النار)[2].

ومعنى العبارة الكريمة بإيجاز (إنَّ الله ـ عز وجل ـ اختبرَ حال السماء لاستراق السمع فوجدها ـ تعالى ـ كثيرة الحراس من الملائكة، وكثرة الشهب لرجم من يسترق السمع) وقد ذكر جمهور المفسرين[3].

أن الشهب تكاثرت في مدة الرسالة المحمدية حفظاً للقرآن من دسائس الشياطين كما دلّ عليه قوله ـ تعالى ـ ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْآنَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا﴾ [الجن: 9]، فقد أعيد لفظ ﴿وَأَنَّا﴾ للدلالة على أنّ الخبر الذي تضمنه هو المقصود وأن ما قبله كالتوطئة، فإعادة ﴿وَأَنَّا﴾ توكيد لفاعل،

(1) التحرير والتنوير ج 29/ 227 (بتصرف).
(2) تفسير البيضاوي ج 4/ 224.
(3) ينظر: التحرير والتنوير ج 29/ 227.

و(القعود) ـ هنا ـ مجاز في ملازمة المكان زمناً طويلاً؛ لأن ملازمة المكان من لوازم القعود، ومنه قوله تعالى: ﴿وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ﴾ [التوبة: 5]، ﴿مِنْهَا﴾؛ أي: من السماء، ﴿مَقَٰعِدَ﴾: كائنة للسمع خالية من الحرس، والشهب أو صالحة للترصد والاستماع، و﴿لِلسَّمْعِ﴾: لأجل السمع؛ أي: (لأن نسمع ما يجري في العالم العلوي من تصاريف الملائكة فالتكوين والتصريف ولعل الجن منساقون إلى ذلك بالجِبِلَّة، كما تنساق الشياطين إلى الوسوسة)، ﴿فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْءَانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا﴾؛ أي: فمن يستمع الآن لا يتمكن من السماع، وقد حقق تركيب الشرط وجوابه دلالة التحذير لمن يتعرض للاستماع؛ لأن المستمع يتعرض لأذى الشهب و(الجن: لا تنكفُ عن ذلك لأنهم منساقون إليه بالطبع مع ما ينالهم من أذى الرجم والاحتراق)[1].

و(الرصد): اسم جمع (راصد)؛ وهو الحافظ للشيء وهو وصف لـ ﴿شِهَابٌ﴾؛ أي: شهباً راصدة، ولأجله يمنعه عن الاستماع بالرجم، ووصفها بالرصد استعارة شبهت (الشهب) بالحرس الراصدين وهذه إشارة إلى انقراض الكهانة حين بعث الله ـ تعالى ـ رسوله محمد ﷺ، وأنزل عليه القرآن الكريم، فقد تغيَّرَ الوضع، وصار هلاك الشياطين على جريمة استراق السمع يتم بتجليد شهب رهيبة السرعة، بمعنى: من يقعد الآن (في زمن البعثة المحمدية) في مقعد من مقاعد السمع يجد شهاباً راصداً، فأنت ترى أن السياق الكريم لم يصف (الشهاب) في السماء، بصفة مثل (مبين) أو (ثاقب) التي تفيد أنه شعلة من نار. ومعنى ذلك أن (الشهاب) وهو في السماء يكون جسماً مظلماً، ولكنه عندما يخترق جو الأرض يكتسب حرارة من احتكاكها به تجعله شعلة من النار المضيئة، وهنا ندرك كَفَّهم عن الاقتراب وعن استراق السمع بعد نزول القرآن الكريم، فـ(كأن هناك جاذبية مغناطيسية سالبة وموجبة في كل ذرة من ذرات الشهاب والجن فإذا اقترب من مناطق استراق السمع انجذبت ذرات الشهاب نحوه، فإذا اقترب

(1) التحرير والتنوير ج 29/ 229.

الجن من مناطق استراق السمع انجذبت ذرات الشهاب نحوه، فإذا حاول الفرار بسرعته الرهيبة لاحقته جاذبية الشهاب أينما سار حتى تفنى ذراته في ذرات الجن تماماً)[1]، وفي نهاية هذا المبحث نقول بعبارة موجزة:

إن السياق القرآني الكريم المتضمن لفظ (الشهاب)، إذا قصد به متابعة الشيطان الخاطف للسمع أو من استرق السمع في هبوطه من السماء مندفعاً إلى الأرض، فينقض واضحاً للعيون ثاقباً الجو بضوئه بسبب سرعة حركته إذا قصد به ذلك خصه النظم بوصف، مثل ﴿مُّبِينٌ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ﴾ [الحجر: 18] أو بصفة ﴿ثَاقِبٌ﴾ في قوله عز وجل: ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ [الصافات: 10].

أو يتبعه ببدل كقوله تعالى: ﴿أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ﴾ أمّا قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا﴾ [الجن: 8]، فلم يقترن (الشهاب) بوصف؛ لأن المقصود من ذكره، هو وجوده كجرم في السماء، وليس في السياق ما يدل على إرادة متابعة من استرق السمع، كذلك قوله ـ تعالى ـ في الآية التالية من السورة نفسها: ﴿فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْءَانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا﴾ [الجن: 9]، فقد وصف (الشهاب) بأنه ﴿رَّصَدًا﴾، والراصد ـ كما ذكرنا ـ الحافظ للشيء، والمانع من استراق السمع.

(1) المنهج الإيماني ص 192.

المبحث الثالث

«النور»

أمّا لفظ (النور) فقد ورد في نحو (خمسين) موضعاً من القرآن الكريم جاء في أغلب هذه المواضع بدلالته المجازية (المعنوية)، وقل استعمال (النور) بدلالته الحسية، ومن تلك المواضع قوله تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَـٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ﴾ [البقرة: 17].

إنَّ معنى النص الكريم ـ كما ذكرناه في صفحة سابقة ـ هو؛ لما وقع ضوء النار على ما حول المنافقين من الأجسام المظلمة، ثم انتشر عليها وانعكس منها، فكشفها للناظرين ذهب الله بالضياء المنتشر المعكوس من الأجسام المظلمة الذي كان يقع على أبصارهم ولك أن تتأمل قوله ـ تعالى ـ: ﴿فَلَمَّآ أَضَآءَتْ﴾؛ فسمى ـ تعالى ـ ما انتشر من (النار) ضياء، ثم قال ـ تعالى ـ: ﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾: فقد نسب (النور) إليهم، فضياء النار بعد وقوعها على الأجسام المظلمة وانعكاسه منها على الأبصار سمي (نوراً) وفي قراءتنا للنص الكريم نستطيع الإشارة إلى الملاحظات الآتية: ـ

1 ـ آثر النص الكريم لفظ (نورهم) بدلاً من (نارهم) المبتدأ به؛ للتنبيه على الانتقال من التمثيل إلى الحقيقة، ليدل على أن الله أذهب نور الإيمان من قلوب المنافقين، فهذا إيجاز بديع كأنه قيل: فلما أضاءت ذهب الله بناره، فكذلك ذهب الله بنورهم وهو أسلوب من أساليب الإعجاز، يقول ابن الجوزية قال ـ تعالى ـ: ﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ ولم يقل (بنارهم): فإنَّ (النار) فيها الإضاءة والإحراق، فذهب الله بما فيها من الإضاءة وأبقى عليهم ما

فيها من الإحراق[1]، وهذا الوجه يناسبه، خَتْم الآية بقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ﴾ أو: لأن معنى: ﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾: أطفأ نارهم، فعبر بـ (النور)؛ لأنه المقصود من الاستيقاد، وقيل إذهاب (النور) إلى الله ـ تعالى ـ لأنه بلا سبب معروف من ريح أو مطر أو إطفاء مطفيء، والعرب يسندون الأمر الذي لم يتضح سببه لاسم الله ـ تعالى ـ.

2 ـ إن ايثار لفظ (النور) دون غيره من الألفاظ الأخرى أنسب للسياق؛ وتفسير ذلك: أَنَّ الذي يشبه النار من الحالة المشبهة، هو مظاهر الإسلام التي يظهرونها وقد شاع التعبير عن الإسلام بـ (النور) في القرآن الكريم، فصار اختيار لفظ (النور) ـ هنا ـ بمنزلة تجريد الإستعارة؛ لأنه أنسب بالحال المشبهة[2].

3 ـ جاء الضمير في قوله ـ تعالى ـ: ﴿بِنُورِهِمْ﴾ جمعاً مع كونه يعود إلى الضمير المفرد في قوله عز وجل: ﴿مَا حَوْلَهُۥ﴾ لمراعاة الحال المشبهة، وهي: حال المنافقين، لا لحال المشبه؛ وهي حال المستوقد الواحد. على وجه بديع في الرجوع إلى الغرض الأصلي، وهو انطماس نور الإيمان منهم فهو عائد إلى المنافقين لا إلى ﴿ٱلَّذِى﴾.

4 ـ أما قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ﴾، فهو تقرير لمضمون قوله تعالى: ﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾؛ لأنَّ من ذهب نوره بقي في ظلمة لا يبصر، ولم يرد لفظ (الظلمات) مفرداً في القرآن الكريم؛ ويبدو أن لفظ: ﴿ظُلُمَٰتٍ﴾ أشهر إطلاقاً في فصيح الكلام، وفي استعمالها ـ هنا ـ بصيغة الجمع ﴿ظُلُمَٰتٍ﴾؛ إشارة إلى أحوال المنافقين، كل حالة منها تصلح لأن تشبه الظلمة، وتلك هي حالة الكفر، وحالة الكذب، وحالة الاستهزاء بالمؤمنين، وما يتبع تلك الأحوال من آثار النفاق، وقيل: جمع (الظلمات) لقصد بيان الظلمة كقوله تعالى: ﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ [الأنعام: 63].

5 ـ إن الذي يستوقد النار في الظلام يتطلب رؤية الأشياء، فإذا انطفأت النار

(1) الأمثال في القرآن الكريم ص 177.

(2) التحرير والتنوير ج 1/ 309، 310.

صار أشد حيرة منه أول الأمر؛ لأن ضوء النار قد عود بصره، فيظهر أثر الظلمة في المرة الثانية أقوى، ويرسخ الكفر فيهم، وهنا تظهر نكتة البيان وروعة ختام هذا النسق الكريم بجملة ﴿يُبْصِرُونَ﴾ لتصوير حال من انطفأ نوره بعد أن استضاء به.

وجاء لفظ (النور) بدلالته الحسية، ولكن في السياقات القرآنية التي تعرض مشاهد من يوم القيامة، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ ۖ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [التحريم: 8]. فـ (اليوم). في النص الكريم ـ يوم القيامة و(الخزي)، عذاب النار، يقال: أخزى الله فلاناً، أي: فضحه، والمراد بـ (النور): حقيقته؛ أي: نور حقيقي يجعله الله للنبي ﷺ وللمؤمنين في مسيرهم يوم القيامة، والضمير (هم)، في قوله تعالى: ﴿نُورُهُمْ﴾ عائد إلى النبي ﷺ والذين آمنوا معه، وفي إضافة (النور) إلى الضمير دلالة على اختصاص النور بهم في ذلك اليوم بحيث يميزه الناس من بين الأنوار يومئذ. فهو (نور لذواتهم أكرموا به)، أما (سعي النور) فهو امتداده وانتشاره، وتتجسد في السياق الكريم مقابلة بين (الثناء) على النبي محمد ﷺ، ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ﴾: وهم أصحابه والتعريض بالذين لم يؤمنوا معه يخزيهم الله يوم القيامة.

وقد سلك السياق أسلوب التشبيه؛ إذ شبه (نورهم) في سعيه؛ باشتداد مشي الماشي فإنه يحف بهم حيثما انتقلوا تنويهاً بشأنهم، فتأمل دقة ألفاظ النظم القرآني؛ إذ خص بالذكر من الجهات ﴿بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ ـ أي: أمامهم ـ و﴿وَبِأَيْمَٰنِهِمْ﴾؛ أي: جمع اليمين؛ لأن (النور) إذا كان بين أيديهم تمتعوا بمشاهدته وشعروا بأنه كرامة لهم، ولأن الأيدي هي التي تمسك بها الأمور النفيسة، وبها بايعوا النبي ﷺ على الإيمان بالنصر، ولأن السعداء في يوم القيامة (يؤتون صحائف أعمالهم من هاتين الجهتين كما أن الأشقياء يؤتونها من شمائلهم ووراء ظهورهم)[1].

(1) روح المعاني ج 27/ 174.

أما قوله عز وجل: ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتۡمِمۡ لَنَا نُورَنَا﴾ فقد تضمن تركيب النداء ﴿رَبَّنَآ﴾ ثُمَّ تركيب الأمر الدالّ على الدعاء إلى الله عز وجل أن: ﴿أَتۡمِمۡ لَنَا نُورَنَا﴾، و(إتمام النور) إدامته، والزيادة منه، وقد احتفظ لفظ (النور) ـ هنا ـ بدلالته الحسية. ومثله قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ تَرَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ يَسۡعَىٰ نُورُهُم بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَبِأَيۡمَٰنِهِم﴾ [الحديد: 12].

فالآية الكريمة تبرز مشهداً من مشاهد يوم القيامة، والخِطاب في الفعل ـ ترى ـ لغير معين؛ أي: يوم يرى الرائي، والرؤية ـ هنا ـ رؤية بصرية، والمراد بـ(النور) دلالته الحسية (الحقيقية) فهو نور حقيقي يجعله الله للمؤمنين في مسيرهم من مكان الحشر إكراماً لهم، وتنويهاً بهم في ذلك المحشر والتقدير: (يسعى نورهم حين يسعون) فحذف ذلك؛ لأن (النور) إنما يسعى إذا سعى صاحبه، وإلا لانفصل عنه وتركه، وقد أضيف (نور) ـ كما في الآية السابقة ـ إلى الضمير (هم)، وجعل مكانه من ﴿بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَبِأَيۡمَٰنِهِمۡ﴾ (ليبيّن أنه نور لذواتهم أكرموا به)[1].

أما إذا أريد بـ(النور)؛ الهدى الذي كانوا عليه في الدنيا؛ فهو استعارة تصريحية أصلية ـ فقد شبه (الهدى) بـ(النور) بجامع النفع في الكل والوصول إلى الهدى، فحذف المشبه (الهدى) وبقي المشبه به (النور) لوجود قرينة دالة عليه: قال ابن جُزَيّ (والصحيح هو قول الجمهور أنه حقيقة وقد روي عن الرسول ﷺ، فالمعنى على هذا أن المؤمنين يكون لهم يوم القيامة نور يضيء قدامهم وعن يمين كل واحد منهم)[2].

ونقرأ في سورة «الحديد» نفسها قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱنظُرُونَا نَقۡتَبِسۡ مِن نُّورِكُمۡ قِيلَ ٱرۡجِعُواْ وَرَآءَكُمۡ فَٱلۡتَمِسُواْ نُورًا﴾ [الحديد: 13].

أمّا قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ يَقُولُ . . .﴾ فهو بدل مطابق من قوله عز وجل ـ في

(1) التحرير والتنوير ج 27/ 380.

(2) تفسير ابن جُزَيّ ص 744.

الآية السابقة ـ ﴿يَوْمَ تَرَى . .﴾ إذ اليوم نفسه (يوم القيامة). وفي قوله عز وجل: ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ تغليب للذكور؛ لأن المخاطبين هم أصحاب النور، وهم المؤمنون والمؤمنات.

أما قوله ـ تعالى ـ: ﴿ٱنظُرُونَا﴾، فقد ذهب جمهور المفسرين إلى أنه بمعنى (انتظرونا؛ لأن المؤمنين يسرعون إلى الجنة كالبرق الخاطف، أمَّا المنافقون فليسوا كذلك)، فيكون معنى الآية ـ على هذا الوجه ـ (إنَّ كل مؤمن مظهر للإيمان يُعْطَى يوم القيامة نوراً فيبقى نور المؤمنين، وينطفيء نور المنافقين، فيقول المنافقون للمؤمنين ﴿ٱنظُرُونَا﴾؛ أي: تريثوا في مسيرتكم حتى نلحق بكم فنستضيء بالنور الذي بين أيديكم وبجانبكم و(الاقتباس): أخذ القبس، وهو الجذوة من الجمر ويجوز أن يكون إطلاق ﴿نَقْتَبِسْ﴾ هنا حقيقة: بأن يكونوا ظنوا أن (النور) الذي كان مع المؤمنين ذو شعلة، وحسبوا، أنهم يستطيعون أن يأخذوا قبساً منه، ذلك في ظنهم لتكون خيبتهم أشد حسرة ويجوز أن يستعار (الاقتباس) لانتفاع أحد بضوء آخر؛ لأنه يشبه الاقتباس في الانتفاع بالضوء بدون علاج، وعلى هذا يكون معنى ﴿نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ﴾؛ نصب منه ونلتحق به فنستنير به)[1].

أما تفسير قوله عز وجل: ﴿ٱنظُرُونَا﴾؛ من النظر؛ أي: انظروا إلينا؛ لأنهم إذا نظروا إليهم استقبلوهم فاستضاؤوا بنورهم[2].

فيبدو أنه ضعيف؛ لأن (النظر) إذا كان بمعنى (النظر بالعين)؛ يتعدى بـ (إلى)، أما قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ [الأنعام: 1]، بدأ سبحانه سورة (الأنعام) بالحمد لله للدلالة على أن الحمد كله له، لا يستحقه إلّا هو وقد وصف ـ تعالى ـ ذاته في مقام هذا الحمد بصفتين من صفاته الفعلية التي هي من موجبات الحمد له، وهما خلق السمٰوات والأرض، وجعل الظلمات والنور[3].

(1) روح المعاني ج 27/ 176.
(2) الكشاف ج 4/ 63.
(3) روح المعاني ج 27/ 174.

وقد آثر النص الكريم مجيء اسم الموصول ﴿ٱلَّذِى﴾ في محل الصفة لاسم الجلالة ليقيد مع صلته التذكير بعظيم صفة الخلق الذي عم السمٰوات والأرض وما فيهن من الجواهر والأغراض و(جمع السمٰوات لأنها عوالم كثيرة، إذْ كل كوكب منها عالم مستقل عن غيره وأفرد الأرض لأنها عالم واحد. . .)[1].

أما قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾؛ فهو في الحسيات بمعنى إيجادها لأن هذا هو معنى (جعل) المتعدي إلى مفعول واحد. فالفعل ﴿وَجَعَلَ﴾ يتعدى إلى مفعول واحد إذا كان بمعنى (أحدث) و(أنشأ). كقوله ـ هنا ـ في سورة الأنعام ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ وإلى مفعولين إذا كان بمعنى (صيَّر) كقوله ـ عز وجل ـ ﴿وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا﴾ [الزخرف: 19]، والفرق بين (الخلق) و(الجعل)؛ أنّ (الخلق) فيه معنى التقدير وفي (الجعل)؛ التضمين، كإنشاء شيء من شيء؛ أي: تَصْيِير شيءٍ شيئاً، أو نقله من مكان إلى مكان، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [الزمر: 6] ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾؛ لأن الظلمات من الأجرام المتكاثفة. .[2]. وتأمل ـ أيضاً ـ مجيء لفظي ﴿ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ جاء عقب ذكر ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ وهذا يعني كون المجعول مخلوقاً لأصل غيره أو منتسباً إلى غيره، فيعزى المنتسب إليه بمعونة المقام فـ﴿ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ لمّا كانا عرضين كان خلقهما تكويناً لتكيف (موجودات السمٰوات والأرض بهما)[3]. يقول أهل التفسير: ذكر ـ سبحانه وتعالى ـ خلق الجواهر بقوله ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ ثم ذكر الأعراض بقوله: ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾؛ لأن الجواهر لا تستغني عن الأعراض، وذكر هؤلاء المفسرون عدة دلالات للفظتي (الظلمات والنور): فذكر بعضهم أن المقصود بـ(الظلمات): الكفر، و(النور) الإيمان وقيل المراد بهما (الجهل) و(العلم) وذكر جمهور المفسرين إلى أن المراد بـ(الظلمات): سواد

(1) تفسير المنار ج 7/ 292.
(2) الكشاف ج 2/ 3.
(3) التحرير والتنوير ج 7/ 126.

الليل، وبـ(النور) نور النهار؛ أي: المراد بهما دلالتهما الحسية. ويبدو لنا ـ والله أعلم ـ أن لا تعارض بين هذه الدلالات فالمقام يحتمل أن يقال إن (الظلمات) تشمل كل ما يطلق عليه اسم (الظلمة) والنور يشمل كل ما يطلق عليه (النور) والتعبير بـ(جعل) دون (خلق) يلائمه فإنَّ الكفر يشبه (الظلمة) لأنه انغماس في جهل وحيرة، والإيمان يشبه (النور) لأنه استبانة الهدى والحق. قال تعالى ﴿وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ﴾ [المائدة: 16] أما تقديم ﴿ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ على ﴿ٱلنُّورَ﴾ فقيل للترتيب في الوجود لأن الظلمة سابقة النور[1]. والأمر ينطبق على الدلالة المعنوية للفظتي (الظلمات) و(النور)؛ لأن (نور) العلم والهداية (كسبي في البشر، وما كان غير كسبي في ذاته كالوحي، فتلقيه كسبي وفهمه والعمل به كسبيان وظلمات الجهل والأهواء سابقة على هذا النور)[2]. وفي جمع (الظلمات) وإفراد (النور) لمحة بلاغية أخرى، ينبهنا عليها الزمخشري فيقول: فإن قلت: لم أفرد (النور)؟ قلت: للقصد إلى الجنس، كقوله تعالى: ﴿وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَآ﴾ [الحاقة: 17]، أو لأن (الظلمات) كثيرة؛ لأنه ما من جنس من أجناس الأجرام إلّا وله (ظل) وظله (الظلمة) بخلاف النور فإنّه من جنس واحد، وهو (النار)[3]. وعقب الإسكندري على رأي الزمخشري، بقوله: (لو قال الزمخشري إن جمع ﴿ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ لاختلافها بحسب اختلاف ما ينشأ عنه من أجناس الأجرام وإفراد ﴿ٱلنُّورَ﴾ لاتحاد الجنس الذي ينشأ عنه وهو (النار)، لكان أولى..)[4]. أي: أفرد (النور) لأنه جنس يشتمل جميع أنواعه، وجمع (الظلمات) لكثرة أسبابها وتعدد أنواعها نظيره ظلمة الليل، وظلمة البحر، وظلمة الموضع، يخالف كل واحد منهما صاحبه. و(النور) ضرب واحد لا يختلف كما تختلف (الظلمات). وذهب الشيخ الطاهر بن عاشور إلى أنَّ لفظ (الظلمات) بالجمع

(1) التحرير والتنوير ج 7/ 127.
(2) تفسير المنار ج 7/ 294.
(3) الكشاف ج 2/ 4.
(4) هامش الكشاف ج 2/ 4.

أخفّ ولفظ ﴿وَٱلنُّورَ﴾ بالإفراد أخف، لذلك لم يرد لفظ ﴿ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ في القرآن الكريم إلّا جمعاً، ولم يرد لفظ ﴿ٱلنُّورَ﴾ إلّا مُفْرَداً[1].

ومن الشواهد التي يستعمل فيها لفظ ﴿ٱلنُّورَ﴾ في القرآن الكريم بدلالته المجازية (المعنوية)، قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ﴾ [البقرة: 257].

يقول جمهور المفسرين (المراد بـ ﴿ٱلنُّورَ﴾؛ نور البرهان والحق، و﴿ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ﴾ ظلمات الشبهات والشك. فالله ـ سبحانه وتعالى ـ يزيد الذين اهتدوا هدى؛ لأن اتباعهم الإسلام تيسير لطرق اليقين، فهم يزدادون توغلاً فيها يوماً فيوماً، وبعكسهم الذين اختاروا الكفر على الإسلام، فإنَّ اختيارهم ذلك دلّ على ختم ضرب على عقولهم، فلم يهتدوا، فهم يزدادون في الضلال يوماً فيوماً)[2].

وقيل معنى قوله عز وجل: ﴿مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ﴾؛ التابعة، للكفر، أو ظلمات المعاني، وقوله ـ عز وجل ـ: ﴿إِلَى ٱلنُّورِ ۖ﴾ معناه: نور الإيمان أو نور التقوى أو نور الطاعات أو نور اليقين بمراتبه. وقال ـ بعض المفسرين ـ أنه اقتصر في تفسير ﴿ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ و﴿ٱلنُّورِ ۖ﴾ على ذكر (الكفر) و(الإيمان)، وحمل كل ما في القرآن على ذلك سوى ما في الأنعام من قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ﴾ [الأنعام: 1].

فإن المرادَ بهما ـ هناك ـ (الليل) و(النهار) ورد الآلوسي هذا الرأي بقوله (الأولى أن يحمل ﴿ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ على المعنى الذي يعم سائر أنواعها، ويحمل ﴿ٱلنُّورَ﴾ ـ أيضاً ـ على ما يعم سائر أنواعه)[3].

والظاهر أنّ المراد بـ﴿ٱلنُّورَ﴾ ـ هنا ـ نور البرهان والحق، و﴿ٱلظُّلُمَٰتِ﴾: ظلمات الشبهات والشك، يؤيد ذلك أنّ السياق الكريم آثر التعبير بصيغة (يفعل)

(1) التحرير والتنوير ج 7/ 128.

(2) التحرير والتنوير ج 3/ 30.

(3) روح المعاني ج 3/ 14.

في قوله ـ عز وجل ـ: ﴿يُخْرِجُهُم﴾ و﴿يُخْرِجُونَهُم﴾. للإشارة إلى هذا الازدياد المتجدد في الأمرين، فصيغة الفعل (يفعل)؛ تدل على التجدد. فالله يزيد الذين اختاروا الإسلام هدى ورحمة، وبعكسهم الذين اختاروا الكفر على الإسلام فهم يزدادون في الضلال وظلمات الشك يوماً بعد يوم. ومثله قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [الحديد: 9]، أي: الله ـ سبحانه وتعالى ـ ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ﴾؛ يعني محمد ﷺ ﴿ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾؛ أي: حججاً منيرة وبراهين واضحة. ﴿لِّيُخْرِجَكُم﴾ الله بالقرآن والأدلة، وقيل: ليخرجكم الرسول بالدعوة ﴿مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾؛ أي: من الكفر إلى الإيمان بالتوفيق والهداية والإلطاف والأدلة.

فكأن السياق الكريم قد سلك أسلوب الاستعارة فشبه (الهدى) بـ﴿ٱلنُّورِ﴾ بجامع الوصول إلى المقصود بالاهتداء إلى الهدى على سبيل الاستعارة التصريحية كذلك شبه (الضلال) بـ(الظلمات) الحسية، بجامع عدم الوصول إلى المقصود على سبيل الاستعارة التصريحية ـ أيضاً ـ وقال ـ تعالى ـ: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ﴾ [الأنعام: 91].

نقل عن ابن عباس رضي الله عنهما قوله: (قالت اليهود يا محمد أأنزل الله عليك كتاباً، قال: نعم، قالوا: والله ما أنزل الله من السماء كتاباً..). ولما وقع منهم هذا الإنكار وهم اليهود أمر الله نبيّه يُورد عليهم حجة لا يطيقون دفعها فقال ـ عز وجل ـ ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ﴾، وهم يعترفون بذلك ويدعون له. فقد افتتح النص الكريم بالقول ﴿قُلْ﴾: للاهتمام بما يحققه تركيب الاستفهام ﴿مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ﴾، من تقرير وإلجاء، فذكرهم بأمر لا يستطيعون جحده لتواتره في بلاد العرب وهو رسالة موسى عليه السلام ومجيئه بالتوراة فبطل جحدهم وتبيّن فساد إنكارهم ﴿ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ﴾؛ أي: التوراة ﴿نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ﴾؛ أي: بيان يفرق بين الحق والباطل فـ﴿ٱلنُّورَ﴾: استعارة للوضوح والحق، فإنَّ الحق شبه بـ﴿ٱلنُّورَ﴾ كما يشبه الباطل بالظلمة

ولذلك عطف عليه ﴿هُدًى﴾، ونظيره قوله ـ تعالى ـ في سورة المائدة: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾ [المائدة: 44].

ولو أطلق ﴿ٱلنُّورَ﴾ على سبب (الهدى) لصحّ لولا هذا العطف[1] كما قال ـ تعالى ـ ﴿وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورى: 52]، وأنت ترى أنّ السياق الكريم قد سلك أسلوب المجاز الاستعاري، فقد شبّه (الكتاب) ـ وهو التوراة ـ الذي أنزل الله ـ عز وجل ـ و﴿جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ﴾؛ شبهه بـ﴿ٱلنُّورَ﴾ الذي انقشعت به ظلمات الكفر والشرك الذي ورثه بنو إسرائيل وهو **﴿هدى للناس﴾**؛ أي: الذين أنزل عليهم التوراة ليخرجهم من الضلال بما فيه من الأحكام التي أنشأتهم خلقاً جديداً، فكانوا معتصمين بالحق مقيمين للعدل إلى أن اختلفوا فيه، ونسوا حظاً مما ذكروا به، فصاروا بإتباع الأهواء، يجعلونه قراطيس يبدونها[2] عند الحاجة.

وكأن في عطف لفظ ﴿هُدًى﴾ على الـ﴿ٱلنُّورَ﴾، قد أريد به دلالة أعم من (الهدى) فعطف أحد اللفظين على الآخر مشعراً بالمغايرة بينهما. وقال ـ تعالى ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾ [النساء: 174]، قصد السياق الكريم خطاب الناس كافة للأخذ بالهدى ونبذ الضلال فقال ـ عز وجل ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾، بما أنزله عليكم من كتبه وبمن أرسله إليكم من رسله، وما نصبه لهم من المعجزات و(البرهان) في الأصل ـ ما يبرهن به على المطلوب، قال بعض المفسرين: (البرهان): البينة؛ أو: الحجة الواضحة الفاصلة. وذكر الزمخشري أن معنى (البرهان والنور المبين): القرآن أو: أراد (البرهان) دين الحق، أو رسوله محمد ﷺ وبـ(النور المبين) ما يبيّنه ويصدقه من الكتاب المعجز[3]. واتفق أهل التفسير على أن (النور المبين): هو (القرآن) لقوله

---

(1) التحرير والتنوير ج 7/ 361. ينظر ـ أيضاً ـ روح المعاني ج 7/ 191.
(2) تفسير المنار ج 7/ 617.
(3) الكشاف ج 1/ 589.

﴿أنزلنا﴾ بمعنى: أنزل الله القرآن للناس، ليخرجهم من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان. وإطلاق (النور المبين) على (القرآن)؛ لأنه بيّن بنفسه مستغنٍ في ثبوت حقيقته وكونه من الله - تعالى - بإعجازه غير محتاج إلى غيره، مبين لغيره من حقيقة الحق وبطلان الباطل وقد أطلق عليه (البرهان) لأنه أقوى دليل على صدق ما جاء به النبي محمد ﷺ، وفي عدول النظم الكريم من الخطاب في قوله - تعالى -.

﴿ربكم﴾ إلى التكلم ﴿أنزلنا﴾ - فأسند الإنزال إليه - التفات لكمال تشريفه. وننتقل إلى صورة أخرى من صور استعمال لفظ ﴿ٱلنُّورَ﴾ بدلالته، فنقرأ قوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [التوبة: 32]، فالنص الكريم يتضمن ذكر نوع آخر من أنواع ضلالهم وبعدهم عن الحق، وهو ما راموه من إبطال الحق بأقاويلهم الباطلة التي هي كلمات ساذجة ومجالات زائفة، و(الإطفاء) - في أصل معناه - إبطال السراج وإزالة النور بالنفخ عليه والمراد بـ﴿نُورَ ٱللَّهِ﴾ حجته - تعالى - النيرة المشرقة الدالة على وحدانيته وشرائعه وبراهينه، وسميت الدلائل (نوراً) لأنَّه يهتدي بها إلى الصواب كما يهتدي بالنور إلى المحسوسات. وقيل (نبوته - عليه الصلاة والسلام - التي ظهرت - بعد أن استطال دجى الكفر - صبحاً منيراً)[1] أو المراد به الدلائل الدالة على صحة نبوته ﷺ وهي أمور: أحدها المعجزات الباهرة الخارقة للعادات، و(ثانيها): القرآن العظيم وهو معجزة له باقية إلى الأبد، و(ثالثها): دينه الذي أمر به وهو دين الإسلام. فهذه أمور نيرة ودلائل واضحة في صحة نبوة محمد ﷺ، وعلى صدقه، فمن أراد إبطال ذلك بكذب وتزوير فقد خاب سعيه وبطل عمله، فالمراد بالإطفاء - في كل الوجوه - الرد والتكذيب؛ أي: يريد هؤلاء أن يردوا على توحيد الله - تعالى - وتنزيهه عما نسبوه إليه - سبحانه - ومثله لفظ ﴿ٱلنُّورَ﴾ فهو استعارة تصريحية. ومعنى ﴿بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾ بأقاويلهم وكذبهم

(1) روح المعاني ج 15/ 85.

ومجادلاتهم الزائفة، وكأن في السياق الكريم تمثيلاً لحالهم في محاولة إبطال دين الحق ونبوة نبي الصدق بحال من يريد أن ينفخ في نور عظيم قد أنارت به الدنيا وانقشعت به الظلمة، ليطفئه ويذهب نوره.

وتأمل روعة هذا التمثيل، فهو صالح لتفكيك أركانه: بأن يشبّه الإسلام (أو القرآن) وحده بالنور. ويشبّه محاولي إبطاله بمريدي إطفاء النور. ويشبه الجحود والتكذيب بالنفخ. ومن رشاقة هذا الأُسلوب أن آلة النفخ وآلة التكذيب واحدة وهي الأفواه. وقد نسب ﴿ٱلنُّورَ﴾ إلى الله ـ سبحانه وتعالى ـ العظيم الشأن، ومن شأن المضاف إليه ـ عز وجل ـ أنه عظيم القدرة، فكيف يطفأ بنفخ الفم. ومثله قوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [الصف: 8].

أي: يريد هؤلاء الكفار والمنافقون إذهاب نور الإيمان والإسلام بفاسد الكلام الجاري مجرى تراكم الظلام، فمثلهم فيه كمثل من حاول إطفاء النور بفيه. ﴿وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ﴾؛ أي: مظهر كلمته ومؤيد نبيّه ومعلن شريعته ودينه ومبلغ ذلك عنايته، ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾.

وقال تعالى: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن لَّن يُبْعَثُوا۟ ۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ * فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [التغابن: 7 ـ 8] يبيّن النص الكريم بعض ما لأجله اختار الكافرون الكفر على الإيمان، وهو أنهم كانوا لا يقرون بالبعث والنشور، فأمر الله ـ سبحانه وتعالى ـ النبي ﷺ بأن يكذبهم فقال ـ تعالى ـ ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﷺ ﴿بَلَىٰ وَرَبِّى﴾؛ أي: وحق ربي على وجه القسم. ﴿لَتُبْعَثُنَّ﴾؛ أي: لتحشرن. فقد أكد النظم الكريم تكذيبهم بقوله ﴿بَلَىٰ﴾ وباليمين، ثم أكد اليمين بـ(اللام) و(النون) وفي ذلك ما لا يخفى من التوكيد.

﴿ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ﴾: أي: لتخبرن وتحاسبن بأعمالكم وتجاؤون عليهما و﴿وَذَٰلِكَ﴾ البعث والحساب مع الجمع والجزاء، ﴿عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ أي: سهل هين لا يلحقه مشقة ومعاناة فيه.

﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلۡنَاۚ﴾؛ والتقدير: فإذا علمتم هذه الحجج وتذكرتم بنظائركم من العقاب وما ستنبؤون به من أعمالكم، فآمنوا بالله ورسوله، فالمراد بقوله: ﴿وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلۡنَاۚ﴾ هو القرآن، سمّاه ـ تعالى ـ ﴿**نوراً**﴾ لما فيه من الأدلة والحجج الموصلة إلى الحق، فشبه بـ(النور) الذي يهتدي به إلى الطريق؛ أي: وصف القرآن بأنه نور بأسلوب الاستعارة؛ لأنه يشبه (النور) المطلوب باستقامة حجته وبلاغة كلامه، كما في قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ نُورٗا مُّبِينٗا﴾ [النساء: 174].

ويشبه ﴿ٱلنُّورَ﴾ في الإرشاد إلى السلوك القويم. وقال الشيخ الطاهر بن عاشور وفي هذا الشبه تشاركه الكتب السماوية قال ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَا ٱلتَّوۡرَىٰةَ فِيهَا هُدٗى وَنُورٞۚ﴾ [المائدة: 44]، وقرينة الاستعارة قوله ـ تعالى ـ: ﴿ٱلَّذِىٓ أَنزَلۡنَاۚ﴾؛ لأنه من مناسبات المشبه لاشتهار القرآن بين الناس كلهم بالألقاب المشتقة من (الإنزال) و(التنزيل)[1]. وتأمل عدول النظم الكريم من الغيبة في قوله ـ تعالى ـ ﴿بِٱللَّهِ﴾ إلى التكلم في قوله ـ عز وجل ـ و﴿**أنزلناه**﴾، وفي ذلك زيادة ترغيب في الإيمان بالقرآن، تذكيراً بأنه من الله؛ لأن ضمير المتكلم أشد دلالة على معناه من ضمير الغائب. وفي خاتمة هذا المبحث لا بد لنا من قراءة متأنية متدبرة لقوله ـ عز وجل ـ الذي ورد فيه لفظ ﴿ٱلنُّورَ﴾ خمس مرات، وهو قوله ـ تعالى ـ: ﴿۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشۡكَوٰةٖ فِيهَا مِصۡبَاحٌۖ ٱلۡمِصۡبَاحُ فِي زُجَاجَةٍۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوۡكَبٞ دُرِّيّٞ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٖ مُّبَٰرَكَةٖ زَيۡتُونَةٖ لَّا شَرۡقِيَّةٖ وَلَا غَرۡبِيَّةٖ يَكَادُ زَيۡتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوۡ لَمۡ تَمۡسَسۡهُ نَارٞۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٖۚ يَهۡدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَيَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَٰلَ لِلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾ [النور: 35]، فالمراد بـ (النور) ما كان ظاهراً بنفسه ومظهراً لغيره، فكما يعبر بـ (الظلام) عن كيفية عدم رؤية شيء، يقال عندما يتدبر كل شيء (قد بدا النور)[2].

ونقل عن أبي حامد الغزالي ـ في رسالته «مشكاة الأنوار» قوله: (النور؛ هو

(1) التحرير والتنوير ج 28/ 273.

(2) تفسير سورة النور ص 196.

الظاهر الذي به كل ظهور، الذي تنكشف به الأشياء، وتنكشف له، وتنكشف منه، وهو النور الحقيقي وليس فوقه نور. وجعل اسمه ـ تعالى ـ: ﴿ٱلنُّورَ﴾ دالاً على التنزه عن العدم وعلى إخراج الأشياء كلها عن ظلمة العدم إلى ظهور الوجود، فآل إلى ما يستلزمه اسم (النور) من معنى الإظهار والتبيين في الخلق والإرشاد والتشريع)[1].

أما قوله ـ تعالى ـ: ﴿نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ فقد تعددت دلالته عند المفسرين فقيل: ﴿نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾؛ معناه: (ذو نور السمٰوات والأرض، وصاحب نور السمٰوات. شبّه الحق بالنور في ظهوره وبيانه، كقوله ـ تعالى ـ: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [البقرة: 257]؛ أي: من الباطل إلى الحق. وأضاف ﴿ٱلنُّورَ﴾ إلى ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ لأحد معنيين: إما للدلالة على سعة إشراقه وفشوّ إضاءته حتى تضيء له السمٰوات والأرض، وإما أن يراد أهل السمٰوات والأرض وأنهم يستضيئون به)[2].

وذكر ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أن معنى قوله ـ تعالى ـ: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ هادي أهل السمٰوات والأرض، والهدى من الله على وجهين: (التبيان) و(التعريف) ويقال: الله مزيِّن السمٰوات بالنجوم والأرض بالنبات والمياه، ويقال: الله منوِّر قلوب أهل السمٰوات وأهل الأرض من المؤمنين[3].

ويبدو أن تعدد آراء المفسرين يقوم على معنى لفظ ﴿نُورُ﴾؛ (فإن أراد بالنور المدرك بالأبصار فمعنى نور السمٰوات والأرض: أنه خلق النور الذي فيهما من الشمس والقمر والنجوم، أو أنه خلقهما وأخرجهما من العدم إلى الوجود، فإنما ظهرت كما تظهر الأشياء بالضوء. . . وإن أراد بـ(النور) المدرك بالقلوب، فمعنى ﴿نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾؛ جاعل النور في قلوب أهل السمٰوات والأرض)[4].

---

(1) التحرير والتنوير ج 18/ 232.
(2) الكشاف ج 3/ 67.
(3) تنوير المقباس من تفسير ابن عباس ص 220.
(4) تفسير ابن جزي ص 474.

والوجه الثاني هو الذي اختاره ابن عباس، فذكر أنَّ معناه: هادى أهل السمٰوات والأرض وهو الوجه الأقرب إلى دلالة السياق؛ فإن الله ـ عز وجل ـ موجد كل ما يعبر عنه بـ(النور) وخاصة أسباب المعرفة؛ والحجة القائمة والهادي إلى الأعمال الصالحة التي بها حسن العاقبة في العالمين العلوي والسفلي، أما قوله ـ تعالى ـ: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ﴾، فقد نقل عن ابن عباس رضي الله عنهما، وتابعه كثير من المفسرين إلى أن الضمير «الهاء» في قوله ـ عز وجل ـ: ﴿نُورِهِۦ﴾ عائد إلى اسم الجلالة؛ أي: (مثل نور الله في قلب المؤمن)[1] وقيل: الضمير في ﴿نُورِهِۦ﴾ عائد على سيدنا محمد ﷺ؛ وقيل: على القرآن، وقيل على المؤمن[2].

ويبدو أن ما ذكره ابن ـ عباس رضي الله عنهما ـ أقرب إلى دلالة السياق ـ أما الأقوال الأخرى فضعيفة لأنه لم يتقدم ما يعود عليه الضمير[3].

ومعنى قوله ـ تعالى ـ: ﴿كَمِشْكَوٰةٍ﴾ كصفة مشكاة. والمشكاة: هي الكوة غير النافذة تكون في الجدار، ويكون المصباح فيها شديد الإضاءة[4] وهذا (قول جمهور المفسرين، وعن ابن عطية أنه أصح الأقوال)[5]. وقيل: المشكاة: العمود الذي يكون المصباح على رأسه. وقيل: موقع الفتيلة. أو: الحديدة أو الرصاصة التي يكون فيها الفتيل في جوف الزجاجة[6] وقد أشار بعض الباحثين المعاصرين إلى أن المشكاة: في اللغة هي الفجوة المظلمة التي لا نور فيها وحيث أن المشكاة مكان مظلم لا نور فيه، فإنها يمكن أن تكون إشارة إلى السماء[7]، وأسند الغمراوي ذلك (بما رأى رواد الفضاء من ظلام حالك للسماء

(1) تنوير المقباس من تفسير ابن عباس ص 220.
(2) ينظر: روح المعاني ج 18/ 166.
(3) تفسير ابن جزي ص 474.
(4) الكشاف ج 3/ 67.
(5) التحرير والتنوير ج 18/ 166.
(6) المصدر نفسه.
(7) الكون والإعجاز العلمي للقرآن ص 257.

برغم وجود الشمس، وكذلك النجوم؛ لأن الضوء لا بد له من وسط يسري فيه وينعكس عليه كالغلاف الجوي للأرض أما حين ينعدم ذلك الوسط فإن الرؤية تنعدم ويسود الظلام، وهذا هو واقع السماء، فهي حالة السواد برغم وجود النيران فيها)[1].

أما (المصباح)؛ فقيل هو الفتيل بناره، والمعنى: أنه في قنديل من زجاج لأن الضوء فيه أزهر لأنه جسم شفاف، أو: (المصباح): اسم للإناء الذي يوقد فيه بالزيت للإنارة، وهو اسم مشتق من (الصبح)؛ أي: ابتداء ضوء النهار. فـ(المصباح) آلة الإصباح؛ أي: الإضاءة، وقيل: يمكن أن يراد منه (القمر)؛ لأن القمر هو المغلَّف بنسبة عالية من مكونات الزجاج. وقد أعيد لفظ (المصباح) لأنه أعظم أركان التمثيل، ويسمى مثل هذه الإعادة في فن البديع (تشابه الألوان)، و﴿ٱلزُّجَاجَةُ﴾ اسم يصنع من الزجاج؛ قال الزمخشري (أراد قنديلاً من زجاج شامي أزهر، اشتهر بدقة صنعه)[2].

﴿كَأَنَّهَا كَوۡكَبٞ دُرِّيّٞ﴾: شبّه الزجاجة في إنارتها بكوكب دري؛ أي: أن (الزجاجة): وهي جسم غير مضيء بذاته ويحيط بلهب المصباح الذي هو مصدر الضوء، تصبح بعد أن يقع عليها ضوء المصباح؛ ثم ينعكس منها متلألئة كالكوكب الدري[3].

وقيل يحتمل قوله ـ تعالى ـ معنيين: إما أن يريد أنها تضيء بالمصباح الذي فيها. وإما أن يريد أنها في نفسها شديدة الضوء لصفائها ورقة جوهرها، وهذا أبلغ لاجتماع نورها مع نور المصباح[4]. والمراد بـ(الكوكب الدري): أحد الدراري المضيئة.

---

(1) الإسلام في عصر العلم ص 175، 253.

(2) الكشاف ج 3/ 67.

(3) التفسير العلمي للآيات الكونية للقرآن ص 142، 143.

(4) تفسير ابن جزي ص 474.

وفي ضوء ما سبق نستطيع التقرب من معنى قوله ـ تعالى ـ: ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾؛ أي: أنه الدلائل على الحق والمعارف والحقائق الدينية التي تجعل اليقين، فكأن هذا الذي شبه به الحق نور متضاعف قد تناصر فيه، (المشكاة أو الزجاجة) و(المصباح)؛ حتى لم يتبق مما يقوي (النور) ويزيده إشراقاً ويمده بإضاءة باقية؛ ذلك أن (المصباح) إذا كان في مكان متضايق كالمشكاة، كان أضوأ له وأجمع لنوره بخلاف المكان الواسع، فإن (الضوء) ينبث فيه وينتشر، و(القنديل)؛ أعون شيء على زيادة الإنارة، وكذلك (الزيت) وصفاؤه[1].

فكأن التشبيه ـ هنا ـ قد آثر تمثيل حال الدين أو الكتاب المنزل من الله في بيانه وسرعة فشوّه في الناس، بحال انبثاق نور المصباح وانتشاره فيما حف به من أسباب قوة وشعاعه وانتشاره في الجهة المضاءة به.

أي: أن ﴿ٱلنُّورَ﴾ هو معرفة الحق على ما هو عليه، معرفة من وحي الله، وهو القرآن. ﴿كَمِشْكَوٰةٍ﴾: بما في الإرشاد الإلهي من انضباط اليقين وإحالة الدلالة بالمدلولات دون تردد ولا التئام. وحفظ المصباح من الإنطفاء مع ما يحيط بالقرآن من حفظ الله له، يقول ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ﴾ [الحجر: 9].

ومعاني هداية إرشاد الإسلام تشبه (المصباح) في التبصير والإيضاح من ذلك الإرشاد.

وسلامته من أن يطرقه الشك واللبس، يشبه الزجاجة في تجلية ما تحتوي عليه كما قال ـ عز وجل ـ: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَـٰتٍۭ بَيِّنَـٰتٍ﴾ [البقرة: 99].

والوحي الذي أبلغ الله به حقائق الديانة من القرآن والسنَّة يشبه الشجرة المباركة التي تعطي ثمرة يستخرج منها الإرشاد. وسماحة الإسلام وانتفاء الحرج عنه يشبه توسط بين طرفي الأفق، فهو وسط بين طرفي الأفق، بين الشدة المحرجة وبين اللين المفرط. ودوام ذلك الإرشاد وتجريده يشبه الإيقاد. وتعليم

(1) الكشاف ج 3/ 68.

النبي ﷺ أمته ببيان القرآن وتشريع الأحكام يشبه الزيت الصافي الذي حصلت فيه البصيرة، وهو مع ذلك بين قريب التناول يكاد لا يحتاج إلى إلحاح المعلم. وقول - عز وجل -: ﴿مِن شَجَرَةٍ﴾ يومىء إلى الحاجة إلى اجتهاد علماء الدين في استخراج إرشاده على مرور الأزمنة؛ لأن الزيت من ثمر الشجرة يتوقف على اعتصار الثمرة وهو الاستنباط..[1].

ومن هذا (الاستنباط) ما ذكره أحد العلماء المعاصرين من أن (وصفه - تعالى - الضوء اللامع المتلألىء من سطوع زجاجة المصباح ولمعانها بقوله - عز وجل -: ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾ إشارة إلى أنّ هذا اللمعان ينبعث من تراكم أضواء عديدة منعكسة انعكاساً كلياً؛ أي: أنواع بعضها فوق بعض تتجمع في نقط مختلفة داخل الزجاجة قبل إنبعاثها إلى الخارج وأنه - تعالى - يخاطب بهذه الإشارة أهل الخبرة بحال الضياء)[2].

أما قوله - تعالى -: ﴿يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾: فمعنى ﴿لِنُورِهِۦ﴾ المطلق، وفي السياق إشارة إلى دفع التعجب من عدم اهتداء كثير من الناس بالنور الذي أنزله الله وهو (القرآن) و(الإسلام)، فإن الله (إذا لم يشأ هدي أحد خلقِهِ جَبَلَه على العناد والكفر)[3]. فلا يهتدي لإدراكه والارتشاف من فيض نعمته إلّا من يوفقه هو - سبحانه وتعالى - وفي الإظهار - بقوله عز وجل -: ﴿يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ...﴾ في مقام الإضمار؛ لزيادة تقريره وتأكيد فخامته.

وبعد هذا العرض الموجز، نجد أن من المفيد أن نعرض بعض الفضائل التي استطعنا إدراكها بقراءة النصوص القرآنية التي تضمنت لفظتي (الضوء) و(النور) قراءة متأنية متدبرة، وفي ضوء كتب المفسرين القدامى والمحدثين:

1 - يفرّق السياق القرآني الكريم بين (الضوء)؛ الذي يصدر عن ذات الأجسام

(1) التحرير والتنوير ج 18/ 244 (بتصرف).

(2) التفسير العلمي للآيات الكونية في القرآن ص 194.

(3) التحرير والتنوير ج 18/ 244.

التي تضيء بنفسها و(النور)، والذي تكتسبه الأجسام المظلمة من غيرها؛ ثم تعكسه فسمي النظم الكريم ذلك الضوء الذي يشع من أجسام مضيئة نفسها (ضياء)، وسمى الآخر نوراً. و(الضوء): يحمل مع النور حرارة، و(النور) خالص لا حرارة فيه، فـ(الضوء) متوهج، متقد، متماوج مضطرب، و(النور) لطيف، رقيق، وديع، وهذا هو بعض السر في التعبير بـ﴿ٱلنُّورَ﴾ عن لطف الله وسريان حكمته في هذا الوجود، وإلباس رحمة الله إياه، اقرأ قوله ـ تعالى ـ: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [النور: 35]، واقرأ قوله ـ تعالى ـ: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا﴾ [الفرقان: 61]، وقوله ـ عز وجل ـ ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا﴾ [يونس: 5].

وقوله ـ عز وجل ـ: ﴿وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا﴾ [نوح: 16]، ألا ترى في تضمن كل سياق كريم لفظتي: (السراج، أو الشمس)، و(القمر) وتفرد الشمس بـ(الضياء)، أو (السراج)، والقمر بـ(النور)؛ إشارة إلى ذلك. ثم ماذا عسانا أنْ نقول في فضيلة السبق للإعجاز المبين، فقد عرفنا اليوم أن (الشمس جسم ناري ملتهب في كبد السماء، ويشع الضوء والحرارة والطاقة)، والقمر ليس جرماً مضيئاً بذاته وأنما هو عكس فقط.

2 ـ يغلب استعمال لفظ ﴿ٱلنُّورَ﴾، بدلالات مجازية، مثل: معنى (الإيمان) أو (الهدى) أو (القمر) أو (الحقائق)، والدلائل التي تدفع الشك وتجلب اليقين. أو (النبي الذي يجيء بما يُنير السبيل). وهنا يضيف السياق الكريم فضيلة أخرى فقد يغلب سبق لفظ (الظلمات) للفظ ﴿ٱلنُّورَ﴾، ويحتفظ الأول ـ الظلمات ـ بصيغة الجمع، كما يحتفظ الثاني بصيغة الإفراد، أما الفضيلة الأولى فقد سبق الإعجاز المبين ما توصل إليه العلم الحديث، في أن الظلمة سابقة للنور. أما الفضيلة الأخرى: فلأن الظلمات كثيرة بدلالتها الحقيقية أو المجازية، أما (النور) فهو من جنس واحد ـ بدلالته الحقيقية، أو المجازية.

3 ـ ورد لفظ ﴿ٱلنُّورَ﴾ بدلالته (الحسية) في الآخرة، ولأن العقل البشري لا يتمكن من وصف هذا (النور)؛ بل يعجز عن إدراكه، لذلك لا نستطيع تسمية هذه الدلالة بـ(الحسية) أو (الحقيقية).

الفصل الثالث

(الظل)

المبحث الأول: (الظل)

المبحث الأول

(الظل)

ذهب علماء الطبيعة إلى أن (الظل): هو الظلام الناجم عن حائل دون مصدر الضوء وأنّ الشمس هي السبب الأول في حدوث ظاهرة الظل[1].

وقيل: (الظل) هو الأمر: المتوسط بين (الضوء) الخالص و(الظلمة) الخالصة. وتعددت آراء أهل اللغة والمفسرين[2] في تحديد مفهوم (الظل)؛ فقد نقل عن ابن عباس رضي الله عنهما أن (الظل) هو: (ما بين طلوع الفجر إلى الشمس)[3].

واختار بعض المفسرين هذا الرأي ودافعوا عنه، بأنه: أطيب الأوقات، فإنّ الظلمة الخالصة تنفر عنها الطباع وتسر النظر، وشعاع الشمس يسخن الجو ويبهر البصر، ومن هنا كان ظل الجنة ممدوداً، كما قال ـ تعالى ـ: ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾ [الواقعة: 30]، وعدت جماعة أخرى من المفسرين أنَّ (هذا الرأي غير سديد، إذ لا ريب أنَّ المراد تنبيه الناس على عظيم قدرة الله ـ عز وجل ـ وبالغ حكمته فيما يشاهدونه، فلا بد أن يراد بالظل ما يتعارفوه من حالة مخصوصة يشاهدونها في موضع يحول بينه وبين الشمس جسمٌ كثيف مخالف لما في جوانبه من مواقع ضح

---

(1) المنهج الإيماني للدراسات الكونية ص 88.

(2) لمزيد من الفائدة ينظر: (ظاهرة الترادف في ضوء التفسيز البياني للقرآن الكريم الظلّ والفيء).

(3) معجم غريب القرآن (الظل) ص 137.

الشمس وما ذكر وإن كان في الحقيقة ظلاً للأفق الشرقي، لكنَّهم لا يعدونه ظلاً ولا يعدونه بأوصافه المعهودة)[1].

وذكر ابن قتيبة أَنَّ (الظل): (غداة وعشية ومن أول النهار إلى آخره)[2].

وهذا الرأي قريب مما قاله ابن منظور في (لسان العرب): فالظل عنده يدعى (ظلاً) من أول النهار إلى الزوال[3].

أما ابن السكيت فيرى أن (الظل): (ما نسخته الشمس، وذلك بالغداة إلى الزوال)[4].

وتوسع الراغب في تفسير مفهوم الظل، فقال: الظل: ضد الضح، أعمم من الفيء، فإنه يقال: ظل الليل، وظل الجنة ويقال لكل موضوع لم تصل إليه الشمس (ظل)، ولا يقال (الفيء إلا لما زال عنه الشمس)[5].

وقد ورد لفظ (الظل) وجمعه (الظلال)، في أكثر من عشرين موضعاً من القرآن الكريم، ومنه قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا * ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا﴾ [الفرقان: 45 ـ 46].

آثر السياق الكريم أسلوب الاستفهام التقريري، فهو صالح لطبقات السامعين وله خصوصيةُ تحريض كل ذي عينين ولب على إنعام النظر وإدامة التأمل في النهار والليل، متمثلاً في حركة الظل المقدرة تقديراً. فمن كان غافلاً (يسأل عن غفلته ليقر بها تحريضاً على النظر، والجاحد ينكر عليه إهماله النظر، والموافق يحث على زيادة النظر)[6].

---

(1) الفتوحات الإلهية ج 3/ 260.
(2) شرح أداب الكاتب ص 271.
(3) لسان العرب مادة (ظل).
(4) إصلاح المنطق ص 150.
(5) المفردات في غريب القرآن ص 388.
(6) التحرير والتنوير ج 19/ 40.

و(الرؤية) ـ هنا ـ بصرية، وقد ضمن الفعل معنى (النظر)، فعدى إلى المرئي بحرف الجر ﴿إِلَىٰ﴾، فالرائي في هذه الحال يبصر بعينيه ويتأمل بفكره وببصيرته. و(المد): بسط الشيء المنقبض المتداخل، يقال: مَدَّ الحبل، ومدَّ يده، و(كيف): اسم دال على الكيفية، وقد جاءت ـ هنا ـ مجردة عن الاستفهام. والتقدير: ألم ترَ إلى ربِّك إلى هيئة مدّه الظل.

يقول الزمخشري في تفسيره النص الكريم: (أي: ألم تنظر إلى صنع ربك وقدرته ومعنى «مد الظل»: جعله يمتد وينبسط فينتفع به الناس ﴿وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا﴾؛ أي: لاصقاً بأصل كل مظلٍّ من جبل وبناء وشجرة غير منبسطة فلم ينتفع به أحد، سَمَّى انبساط الظل وامتداده تتحركاً منه وعدم ذلك سكوناً. ومعنى كون الشمس دليلاً أن الناس يستدلون بالشمس وأحوالها في مسيرها على أحوال الظل من كونه ثابتاً في مكان زائلاً ومتسعاً ومتقلصاً فيبنون حاجاتهم إلى الظل، واستغناءهم عنه على حسب ذلك وقبضه إليه أنه ينسخه بضح الشمس. «ويسيراً»؛ أي: على مهل، وفي هذا القبض اليسير شيئاً بعد شيء، من المنافع ما لا يعد ولا يحصر، ولو قبض دفعة واحدة لتعطلت أكثر مرافق الناس بالظل والشمس جميعاً)(1).

فتأمل دقة الوصف، وخذ من لطائف ما تضمنه هذا النسق المعجزه:

1 ـ أفاد الفعل «مَدّ» بالتفاوت في مقادير ظل الشيء الواحد؛ لأنّه كلما زاد مقدار الظلمة المكيفة لكيفية الحائل زاد امتداد الظل، وإذا توقفنا عند كتب «علوم الطبيعة»، لتفسر لنا هذه الظاهرة؛ أي: (ظاهره الظل) وجدنا ما يأتي: أن مقداراً محدداً من الظلمة يحصل من حيلولة جسم بين شعاع الشمس وبين المكان الذي يقع عليه الشعاع فينطبع على المكان مقدار من الظل مقدّر بمقدار كيفية الجسم الحائل بين الشعاع وموقعه على حسب اتجاه ذلك الجسم الحائل من جهته الدقيقة أو الضخمة.

(1) الكشاف ج 3/ 94.

ويكون امتداد تلك الظلمة المكيفة بكيفية ذلك الجسم متفاوتاً على حسب تفاوت بُعْد اتجاه الأشعة من موقعها ومن الجسم الحائل، ومختلفاً باستواء المكان وتحدّبه(1).

فتأمل دقة اللفظ وروعة النظم، وكيف جسد قوله الكريم: ﴿مَدَّ ٱلظِّلَّ﴾ إشارات من دقائق التكوين الإلٰهي والقدرة العظيمة للخالق المبدع ـ عز شأنه ـ وأنعم النظر في فضيلة السبق العلمي للإعجاز المبين.

2 ـ يقول ـ تعالى ـ: ﴿وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا﴾؛ أي: لو شاء ـ تعالى ـ لجعله ثابتاً مستقراً؛ أو: لجعله ساكناً لا يتحرك ومعنى ذلك: أن لو شاء الله لجعل الأرض ثابتة في سَمت واحد تجاه الشمس فلا يختلف مقدار ظل الأجسام التي على الأرض، وتلزم ظلالها حالة واحدة فتنعدم فوائد عظيمة، فسكون الأرض ودوام ضياء الشمس على الأرض، أو عدم طلوعها ودوام ظل الأرض عليها وكلا الحالين مهلك للحياة ومبطل لتعاقب الليل والنهار، وهذا تنبيه لحكمته ورحمته بالناس. يقول الشيخ الطاهر بن عاشور في تفسير قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا﴾: (إنَّ هذا الامتداد يكثر على حسب مقابلة الأشعة للحائل، فكلما اتجهت الأشعة إلى الجسم من أخفض جهة، كان الظل أوسع وإذا اتجهت إليه مرتفعة عند تقلص ظله رويداً رويداً إلى أن تصير الأشعة مُسامته أعلى الجسم ساقطة عليه فيزول ظله تماماً أو يكاد يزول)، وبعبارة موجزة لمّا كان مد الظل يشبه التحرك أطلق على انتفاء الامتداد اسم السكون بأنْ يلازم مقداراً واحداً لا ينقص ولا يزيد(2).

فما أروع هذه المقابلة بين قوله ـ تعالى ـ: ﴿مَدَّ ٱلظِّلَّ﴾، وقوله ـ عز وجل ـ: ﴿لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا﴾ إذ تدلنا على عدة إشارات في سياقها؛ **الأولى**: حركة الأرض ودورانها وهذه آية عظيمة وإعجاز ما بعده إعجاز للقرآن الكريم.

(1) المنهج الإيماني ص 89.

(2) المنهج الإيماني ص 89 ـ 90.

الثانية: حالة عموم الظل جميع وجه الأرض؛ أي: حالة الظلمة الأصلية التي سبقت اتجاه أشعة الشمس إلى وجه الأرض.

الثالثة: إن إرادة الله ـ تعالى ـ شاءت أن يكون كل ظل متحركاً؛ لأن من لطف الله ورحمته أن يسخر للإنسان ما في السمٰوات وما في الأرض؛ لأن الحق ـ عز وجل ـ يعلم أين مصلحة الإنسان في ذلك.

3 ـ تأمل قوله ـ تعالى ـ: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾ فإنه (لا يظهر للحس حتى تطلع الشمس فيقع ضوؤها على بعض الأجرام أو لا يوجد ولا يتفاوت إلا بسبب حركتها)[1].

إن سياق النص الكريم قد آثر عطف قوله ـ تعالى ـ: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾ بأداة العطف ﴿ثُمَّ﴾، دون سواها من أدوات العطف ـ على قوله ـ عز وجل ـ: ﴿مَدَّ ٱلظِّلَّ﴾؛ لأن في ﴿ثُمَّ﴾ خصوصية الدلالة على تراخي الرتبة. وهنا نلمح نكتة دلالية؛ لأن معنى (تراخى الرتبة) أنها أبعد اعتباراً؛ أي: أنها أرفع في التأثير أو في الوجود. فإن وجود الشمس هو علة وجود الظلّ للأجسام التي على الأرض، والسبب أرفع رتبة من المسبب؛ أي: أن الله ـ عز وجل ـ مد الظل بأن جعل الشمس دليلاً على مقادير امتداده[2]. يقول الزمخشري: فإن قلت: ﴿ثُمَّ﴾ في هذين الموضعين كيف موقعها؟ قلت: موقعها؛ لبيان الأُمور الثلاثة، كان الثاني أعظم من الأول، والثالث أعظم منهما تشبيهاً لتباعد ما بينهما في الفضل بتباعد ما بين الحوادث في الوقت[2]، ويعطينا هذا التفسير مفتاحاً لكشف بعض أسرار نظم هذا النص الكريم: فإنّ قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا﴾ معطوف على جملة ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾؛ لأن قبض الظل من آثار جعل الشمس دليلاً على الظل. ومعنى ذلك أن ﴿ثُمَّ﴾ الثانية ـ التي في قوله ـ عز وجل ـ: ﴿ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا﴾، مثل: ﴿ثُمَّ﴾ الأولى ـ التي في قوله

---

(1) المنهج الإيماني ص 90.

(2) التحرير والتنوير ج 19/ 41.

ـ تعالى ـ: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾، وكأنَّ مضمون جملة: ﴿قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا﴾ أهم في الاعتبار بمضمونها من مضمون جملة: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾، إذ في (قبض الظل) دلالة من دلالات الشمس هي عكس دلالتها على امتداده فكانت أعجب؛ إذ هي عمل ضد العمل الأدل، وصدور الضدين من السبب الواحد أعجب من صدور أحدهما السابق في الذكر[1] وإذا تنبهنا إلى أن أداة العطف ﴿ثُمَّ﴾ في الوضعين اختصت بالدلالة على مرحلة زمنية تالية، أدركنا إشارة بليغة عظيمة ـ يبدو أنّ أحداً من المفسرين لم يشر إليها ـ وهي: أن السياق الكريم يشير إلى مراحل هذا الظل المتحرك، وهي ثلاث مراحل: فهو (ظل يمتد)، وهو ـ أيضاً ـ (ظل تدل عليه الشمس) كذلك هو (ظل يقبضه الله ـ عز وجل ـ قبضاً يسيراً)، وإذا عدنا إلى التعريفات السابقة لمفهوم الظل، توقفنا عند أحد هذه التعريفات وهو: (الظل الذي تدل عليه الشمس)؛ الممتد بين طلوع الشمس وغروبها ـ وهنا ـ يتبادر إلى الذهن السؤال الآتي: ـ ما المقصود ـ إذاً ـ بمد الظل في قوله ـ عز وجل ـ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ﴾؟ والجواب يبدأ من قراءتنا قوله ـ عز شأنه ـ: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ * فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ * وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ * وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾ [الواقعة: 27 ـ 30]، فقد ذهب جمهور المفسرين إلى أن: (ظل الجنة الممدود لا شمس فيه ولا ظلمة)، فمعنى هذا أن (الظل) المراد في قوله ـ تعالى ـ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ﴾، هو ما ذهب إليه كثير من المفسرين، من كون (الظل من ظلوع الفجر إلى طلوع الشمس)[2]. وكأن المعنى في قوله ـ تعالى ـ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا﴾، يشير إلى مرحلة قائمة بنفسها، وهي التي تعقب الليل وتسبق طلوع الفجر.

وإن قوله ـ عز وجل ـ: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ...﴾ يمثل المرحلة الأخرى القائمة بنفسها ـ أيضاً ـ الواقعة بين طلوع الشمس وغروبها.

---

(1) الكشاف ج 3/ 94.

(2) البحر المحيط ج 6/ 503.

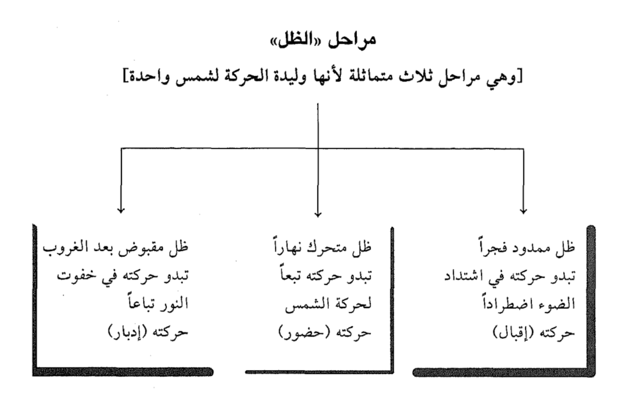
ويبدو أن الشمس في هذه المدة تكون دليلاً على حالة من الظل تختلف عن السابقة في مرحلة الانتقال من الليل إلى النهار، ومعنى ذلك أن هناك مرحلتين مختلفتين من الظل في حقبتين زمنيتين مختلفتين وفي قوله ـ تعالى ـ: ﴿ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا﴾، إشارة إلى مرحلة ثالثة ـ مختلفة عن المرحلتين السابقتين ـ من الظل؛ هي مرحلة (الظل التالي لغروب الشمس، المقبوض ـ هذه المرة قبضاً يسيراً، إلى أن يأتي الليل البهيم على البقية الباقية في أعقاب النهار المودّع)[1].

فأنت ترى أن ورود ﴿ثُمَّ﴾ ـ في موضعين من النظم الكريم، قد أشار إلى هذا البعد من المعنى.

ويمكننا وضع رسم تخطيطي لمراحل (الظل):

مراحل «الظل»

[وهي مراحل ثلاث متماثلة لأنها وليدة الحركة لشمس واحدة]



(1) تأملات في سورة الفرقان ص 113 ـ 114.

4 ـ إن (القبض)؛ هو ضد (المد)؛ وهو مستعمل في معنى (النقص)؛ أي: نقصنا امتداده والقبض ـ في الآية الكريمة ـ استعارة للنقص وجاءت تعديته بـ(إلى) ومجرورها للتخييل فقد شبّه الظلّ بحبل أو ثوب طواه صاحبه بعد أن بسطه على طريقة الاستعارة المكنية. يقول البيضاوي في تفسيره قوله ـ تعالى ـ: ﴿ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا﴾؛ (أي: أزلنا الظل بإيقاع الشمس موقعه لما عبر عن إحداثه بالمد بمعنى التيسير عبّر عن إزالته بالقبض إلى نفسه الذي هو في معنى الكف ﴿قَبْضًا يَسِيرًا﴾؛ قليلاً قليلاً حسبما ترتفع الشمس لتنظم بذلك مصالح الكون ويتحصل به ما لا يتحصل من منافع الخلق)[1].

فتأمل دقة وصف (القبض)، فهو (قبض يسير): إذ أريد أن هذا القبض يحصل ببطء وتريث؛ لأن في التريث تسهيلاً لقبضه، فالعمل المجزأ أيسر على النفوس من المجمع غالباً وقيل: إنّ النظم الكريم أطلق لفظ (اليسير) وأراد لازم معناه، وهو: التدرج ببطء على طريقة الكناية ليكون صالحاً لمعنى آخر. ثم إن قوله ـ تعالى ـ: ﴿ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا﴾: يدلنا ـ والله أعلم ـ على أنّ هذا (القبض) واقع بعد (المد)، فهو متأخر عنه وفي ذلك إشارة عظيمة إلى نعمة جليلة كريمة منَّ بها الله على الناس، وهي: نعمة التناوب في انتفاع الجماعات والأقطار بفوائد شعاع الشمس، وفوائد الفيء بحيث إن الفريق الذي كان تحت الأشعة يتبرد بحلول الظل، والفريق الذي كان في الظل ينتفع بانقباضه. وهذا الكلام يقودنا إلى (العبرة العلمية الكبرى) التي تَحَدَّثَ عنه الشيخ الطاهر بن عاشور في تفسيره للنص الكريم؛ إذ يقول: العبرة العلمية الكبرى تُوَضِّحَهَا قواعد النظام الشمسي وحركة دوران الأرض حول الشمس وظهور الظلمة والضياء، فليس الظل إلا أثر الظلمة. فإن الظلمة هي أصل كيفيات الأكوان، ثم انبثق الضوء بالشمس ونشأ عن تداول الظلمة والضوء نظام الليل والنهار، وعن ذلك نظام الفصول وخطوط الطول والعرض للكرة الأرضية وبها عرفت مناطق الحرارة والبرودة[2].

(1) تفسير البيضاوي ص 481.

(2) التحرير والتنوير ج 19/ 43 ـ 44 (بتصرف).

ثم أليس في هذه الظاهرة إشارة إلى أصل المخلوقات؛ كيف وجدت بعد أن كانت عدماً وكيف يمتد وجودها في طور نمائها، ثم كيف تعود إلى العدم تدريجاً في طور إنحطاطها إلى أن تصير إلى العدم. فكأن قد حصل من التذكير بأحوال الظل - في الآية الكريمة - مع المنّة والدلالة على نظام القدرة وتقريب لحالة إيجاد الناس وأحوال الشباب وتقدم السن، وأنهم عقب ذلك صائرون إلى ربهم يوم البعث مصيراً لا إحالة فيه ولا بعد، كما يزعمون، فلما صار قبض الظل مثلاً لمصير الناس إلى الله بالبعث وصُف القبض بـ(يسير) تلميحاً لقوله - عز وجل - ﴿ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾ [ق: 44]، ولك أن تسأل: أليست صورة حياتنا الدنيا قريبة من صورة (ظل) يمتد، ثم ينقبض، وما هو إلّا ظل ولا تفوتك - في زحمة هذه الأسرار العظيمة - الإشارة إلى عدول النظم الكريم من الغيبة في قوله - عز وجل -: ﴿لَجَعَلَهُ﴾ إلى المتكلم في قوله - تعالى -: ﴿جَعَلْنَا﴾؛ لأن ضمير المتكلم أدخل في الامتنان من ضمير الغائب فهو مشعر بأن هذا الـ (جعل) نعمة من الحق - سبحانه وتعالى - وفي (الآية من معجزات القرآن العلمية)[1] قال - تعالى - في سورة النحل: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ﴾ [النحل: 48]، فقد سلك النظم أسلوب الاستفهام الإنكاري ﴿أَوَلَمْ﴾ وفيه دلالة التوبيخ فـ (الهمزة) للإنكار، و(الواو) للعطف على مقدر يقتضيه المقام[2].

والرؤية - أيضاً - بصرية. وفي قوله: ﴿مِن شَيْءٍ﴾ بيان للإبهام الذي في: ﴿مَا﴾ الموصولة.

ومعنى قوله - تعالى -: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ﴾: أولم ينظر هؤلاء الذين مكروا السيئات. أو: أولم ينظر هؤلاء الماكرون ولم يروا متوجهين إلى ما خلق الله. أو: ما بالهم لم يتفكروا فيما خلق الله ليظهر كمال قدرته وعظيم

(1) المصدر السابق 19/ 43.
(2) روح المعاني ج 14/ 153.

صنعه. و(قيل: الضمير في قوله ـ تعالى ـ ﴿يَرَوْا﴾ لـ(الناس) الشامل لأولئك وغيرهم والإنكار بالنسبة إليهم)[1].

أما (التفيؤ)، فهو وزن (تفعل): من فاء الظل فيئاً؛ أي: عاد بعد أن أزاله ضوء الشمس نقل عن ابن عباس رضي الله عنهما قوله (تتفيأ: تتميل، وقال ـ أيضاً ـ تتفيأ ظلاله: تتهيأ)[2].

ويبدو أن الزمخشري اختار هذه الدلالة لـ(تتفيأ): فذكر أن المعنى: ترجع الظلال من جانب إلى جانب منقادة لله غير ممتنعة عليه فيما سخرها له من التفيؤ...[3].

وتابعهما القرطبي إذ أشار إلى أن معنى قوله ـ تعالى ـ: ﴿يَتَفَيَّؤُاْ ظِلَالُهُ﴾؛ أي: (يميل الظل من جانب إلى جانب ويكون أول النهار على حالة ويتقلص ثم يعود آخر النهار على حالة أخرى، ومنه قيل: (الظل) في العشي (فيء)؛ لأنه فاء من المغرب إلى المشرق؛ أي: رجع، و(الفيء) الرجوع)[4].

ولعل من المفيد أن نشير ـ هنا ـ إلى أن صيغة (يتفيؤوا) لم ترد بهذه الصيغة ولا بهذه الدلالة إلا في هذا الموضوع من القرآن الكريم، و(الظلال): جمع (الظل).

فإذا تدبرنا معنى النظم الكريم المتضمن لفظ: ﴿يَتَفَيَّؤُاْ ظِلَالُهُ﴾؛ وجدنا إشارة واضحة تدل على الحركة المتواصلة في (التفيؤ)، فهو رجوع الظلال إلى أماكنها بتوافق في الأماكن، وتزامن محكم لمرات امتدادها وانحسارها وعودتها: (أولم يروا إلى ما خلق الله): فبقدرة الله ـ عز وجل ـ يتم هذا التناسق والتناغم بين (رؤية أبصارنا) و(تنقل الظلال) من جهات بعد الشروق وبعد زوالها وبين حركة

---

(1) روح المعاني ج 14/ 153 ـ 154.

(2) المصدر السابق.

(3) معجم غريب القرآن (تتفيأ).

(4) الكشاف ج 2/ 412 ينظر ـ أيضاً ـ: الفتوحات الإلهية ج 2/ 573.

هذه (الظلال) وهي تعود إلى أماكنها على الأرض وتنحسر عنها باتصال حركة الأرض بحركة الشمس؛ أي: كأني أتلمس في السياق الكريم إشارة بيّنة تؤكد الحركة التي تدور بها الأرض حول الشمس، وهذا دليل على إعجاز علمي آخر للقرآن الكريم، وفضيلة سبق أخرى تكشفها بلاغة نظم الآيات الكونية في القرآن فتعال معنا ـ أيها القارئ ـ لتتمّ قراءة الآية الكريمة، يقول ـ تعالى ـ: ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ﴾: والمعنى (أولم يروا إلى ما خلق الله من الأجرام وظلال متفيئة عن أيمانها وشمائلها؛ أي: على جانبي كل واحد منها وشقيه، استعارة عن يمين الإنسان لجانبي الشيء)[1]؛ أي: سلك النص الكريم أسلوب المجاز من إطلاق المقيد على المطلق بمعنى: ألم يروا الأشياء لها ظلال متفيئة عن جانبي كل واحد منها ترجع من جانب إلى جانب بارتفاع الشمس وانحدارها أو باختلاف مشارقها ومغاربها، فإن لها مشارق ومغارب بحسب مداراتها اليومية حال كون ذلك الظلال[2].

أما تفسير إفراد (اليمين) وجمع (الشمائل) فقد ذكر أهل التفسير فيه وجهين، أفرد (اليمين) باعتبار لفظ ﴿مَا﴾ وجمع (الشمائل) باعتبار معناها[3].

أو: أفرد (اليمين) لأن المراد به جنس الجهة، كما يقال (المشرق) وجمع (الشمائل)، مراداً به تعدد جنس (الشمائل) بتعدد أصحابها. كما قال ـ تعالى ـ ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ﴾ والمخالفة بالإفراد والجمع تفنن[4].

أما قوله ـ تعالى ـ ﴿سُجَّدًا﴾ فهو (حال) من ضمير ﴿ظِلَٰلُهُۥ﴾ العائد إلى قوله ـ تعالى ـ: ﴿مِن شَيْءٍ﴾. فهو (قيد للتفيؤ؛ أي: أن ذلك التفيؤ يقارنه السجود مقارنة الحصول ضمنه)[5].

---

(1) الجامع لأحكام القرآن ج 3/ 37 ـ 38.
(2) الكشاف ج 2/ 512.
(3) روح المعاني ج 14/ 514.
(4) الفتوحات الإلهية ج 4/ 573.
(5) التحرير والتنوير ج 14/ 169.

فمعنى (سجود الظلال): أن الله ـ تعالى ـ خلقها من أعراض الأجسام الأرضية فهي مرتبطة بنظام انعكاس أشعة الشمس عليها، وانتهاء الأشعة إلى صلابة وجه الأرض حتى تكون الظلال واقعة على وقوع الساجد. فلو جعل الله الشمس شمسين متقابلتين على السواء لانعدمت الظلال، ولو جعل ـ تعالى ـ وجه الأرض شفافاً أو لامعاً كالماء لم يظهر الظل بينا. فهذا من رموز الصَنْعَة التي أوجدها الله وأبدع صنعها. فتكون رموزاً دالة على انفراده ـ عز وجل ـ بالإلٰهية، ودالة ـ أيضاً ـ على حاجة المخلوقات إليه، وجعل أكثرها في نوع الإنسان. فإذا تنبهنا إلى أن لفظة ﴿ٱلْيَمِينِ﴾ وردت في عشرين موضعاً من القرآن الكريم، أما لفظة (الشمائل) فلم ترد إلا في هذا الموضع ـ فقط ـ تبيّن لنا ـ والله أعلم ـ أن القصد من إفراد (اليمين) وجمع (الشمائل) هو: التنبيه على دقائق الصنع الإلهي، ومنها حركة الظلال المؤدية إلى التغير؛ لأن ظلال الأشياء واقعة على الأرض في كل مكان وهي دقيقة في حركتها، غنية في تغيراتها نافعة في تبدل جهاتها. أما قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَهُمْ دَٰخِرُونَ﴾ فمعناه: وهم خاضعون لعظمة الله. وبعبارة موجزة نقول: إن النص الكريم وضّح لنا بدقة عظيمة (البعد المكاني) لحركة (الظلال)؛ ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ﴾، ولكي تكتمل الصورة التي نرغب في إبرازها ـ وهي البحث عن البعد الزماني للظلال ـ نقرأ قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْأَصَالِ﴾ [الرعد: 15]، فقد عطف قوله ـ تعالى ـ ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ﴾ على قوله ـ عز وجل ـ في الآية السابقة ﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ﴾؛ أي: له دعوة الحق، وله يسجد من في السمٰوات والأرض وقد عدل عن ضمير الجلالة (له) إلى اسمه ـ تعالى ـ: ﴿الله﴾؛ أي: ولله وحده ﴿يَسْجُدُ﴾: يخضع وينقاد لا لأحد غيره ـ سبحانه ـ فإن كل من في السمٰوات ومن في الأرض يقرون بالعبودية والتعظيم، فيسجدون له ويدل على هذا المعنى قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [لقمان: 25]، والمقصود من قوله ـ عز وجل ـ: ﴿طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ تقسيم أحوال الساجدين فـ(الطوع): الانسياق من النفس تقرباً وزلفى لمحض التعظيم ومحبة الله، و(الكره) الاضطرار عند الشدة والحاجة، كما في قوله ـ تعالى ـ: ﴿إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ﴾ [النحل: 53].

وليس المراد من (الكره): الضغط والإلجاء، ﴿وَظِلَٰلُهُم﴾: أي: يسجد من في السمٰوات والأرض، وتسجد ظلالهم - أيضاً - أي: (وتتفيأ له ﴿وَظِلَٰلُهُم﴾ - أيضاً - حيث تتصرف على مشيئته في الامتداد والتقلص والفيء والزوال)[1].

أما (الغدو): فهو الزمان الذي يغدو فيه الناس؛ أي: يخرجون إلى حوائجهم فهو (مصدر؛ على تقدير مضاف؛ أي: وقت الغدو، أو: جمع غدوة)[2].

و(الآصال): جمع (أصيل)، وهو وقت اصفرار الشمس في آخر المساء والمقصود من ذكر (الغدو والآصال): استيعاب أجزاء أزمنة الظل. وقيل (إنما خص ﴿بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ﴾ بالذكر؛ لأن الظلال تعظم وتكثر في هذين الوقتين، وقيل: لأنَّ الامتداد والتقليص أظهر منها)[3] ونضيف إلى هذه الإشارة، جواز كون (الغدو والآصال)؛ ظرفاً للسجود المقدر، و(الباء) بمعنى ﴿فِي﴾، وهو كثير في القول البليغ وليتبين أن المقصود بـ﴿بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ﴾: الدوام والاستمرار.

فتأمل تناسق النظم الكريم ودقة الإعجاز العلمي للكتاب العزيز، وأنعم النظر في تناغم جمالية البيان القرآني في الإشارة إلى الظواهر الكونية[4].

---

(1) الكشاف ج 2/ 354.

(2) التحرير والتنوير ج 13/ 111.

(3) تفسير البيضاوي ص 320.

(4) يقول الأستاذ محمد عفيفي (إن المزج الناتج من حركة الكون بين الأحياء والأشياء، ظاهر من خلال البيان القرآني في هذا الشأن، حيث جاء ذكر الساجدين في آية سورة الرعد بقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسۡجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾، أما في سورة النحل فقد جاءت آيتها - هكذا - ﴿وَلِلَّهِ يَسۡجُدُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾، ولما كانت سورة الرعد مختصة بعموم الأشياء والأحياء فقد غلبت العقل على النظام الكوني، إذ العقل الإنساني هو مناط الوعي بالكون وبنظامه الإلهي المحكم الذي ينتظم العقل البشري والنظام الكوني في صعيد واحد، وهو عبادة كل شيء لخالق كل شيء سبحانه فكانت (من) هي المبينة لغلبة العقل على النظام الكوني، أما آية سورة النحل: فقد كانت (ما) مختصة - هنا - بتغليب الناحية الكونية إذ =

وأنعم النظر في (وحدة) السجود، في سورة الرعد: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ وفي سورة النحل ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾. وقال ـ تعالى ـ ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا﴾ [النحل: 81] فالله ـ عز وجل ـ يُذكِّر الناس بإحدى نعمه على عباده، إذ جعل الله الظلال صالحة للتوقي من حر الشمس.

قال أهل التفسير إن معنى الآية الكريمة هو (أن الله جعل مما خلق من غير صنع منكم ﴿ظِلَٰلًا﴾ تستظلون بها من الغمام والشجر والجبال وغيرها تتقون بها حر الشمس...).

ومعلوم أن بلاد العرب (شديدة الحرارة وحاجتهم إلى الظلال وما يدفع شدة الحر وقوته أكثر فلهذا السبب ذكر الله ـ تعالى ـ بهذه المعاني في معرض الامتنان عليهم؛ لأن النعمة عليهم فيها ظاهرة)(1).

والفعل ﴿جَعَلَ﴾ بمعنى (أوجد)، فتعدى إلى مفعول واحد، أما الظلال ـ فقد أشرنا إلى دلالته في مواضع سابقة ـ وإذا قرأنا قوله ـ تعالى ـ في سورة النحل ـ أيضاً ـ: ﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ﴾ [النحل: 5].

تنبهنا إلى روعة هذا التناسق العظيم؛ فكأن النظم الكريم في قوله: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا﴾ قد خصّ الحر؛ لأنه لما ذكر الـ(دفء) في قوله ـ عز وجل ـ ﴿فِيهَا دِفْءٌ﴾ ذكر ضده ﴿ٱلظِّلَّ﴾.

وجاء ذكر ﴿ٱلظِّلَّ﴾، في بعض النصوص القرآنية التي تعرض أَحْوَال أهل الجنة ومن ذلك قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا لَّهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا﴾ [النساء: 57]

= الكون مستوعب للوجود الإنساني وغير الإنساني ـ فحيث غلب العقل الإنساني ـ هناك ـ نشأت حاجة الحياة لتغلب النظام الكوني هنا) القرآن تفسير الكون والحياة ص 102 ـ 103.

(1) ينظر: الفتوحات الإلهية ج 3/ 590، وينظر ـ أيضاً ـ: روح المعاني ج 14/ 205.

فالسياق الكريم يقابل قوله ـ تعالى ـ «في الآية السابقة»: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَـٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: 56].

لأن المقابلة تزيد غيظ الكافرين واقتصر من نعيم الآخرة على لذة الجنات، والأزواج المطهرة الصالحات؛ لأنها أحب اللذات المتعارفة للسامعين. فالجنات محل النعيم وحسن المنظر والمأوى والزوجة الصالحة آنس شيء للإنسان: ﴿وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا﴾ وهو (من تمام محاسن الجنات؛ لأن ﴿ٱلظِّلَّ﴾ إنما يكون مع الشمس، وذلك جمال الجنات، ولذة التنعم برؤية إنتفاء حرة)[1].

وقد وصف (الظل) بأنه (ظليل)، وصفاً مشتقاً من لفظ الموصوف (الظل) للدلالة على بلوغه الغاية في جنسه. وفي ذلك ـ أيضاً ـ ما لا يخفى من تأكيد معناه؛ (كما يقال: ليل أليل ويوم أيم، وما أشبه ذلك، وهو ما كان فيناناً لا جواب فيه، ودائماً لا تنسخه الشمس، وسجسجاً لا حر فيه ولا برد وليس ذلك إلا ظل الجنة)[2].

وأنعم النظر في البنية النصية للآية الكريمة، فقد آثرت الجملة الأسمية الدالة على الثبوت والاستقرار، فجاء المسند إليه اسماً موصولاً لتحقق جملته التفصيل المقصود. أما المسند فجاء جملة فعلية فعلها مضارع بالسين الدالة على توكيد وقوعه في المستقبل.

وفي موضوع آخر يصف القرآن الكريم (ظل) أهل الجنة؛ فيقول ـ تعالى ـ: ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾ [الواقعة: 30]؛ أي: ظل ممتد منبسط لا يتقلص كظل الدنيا ولا يتفاوت كظل ما بين طلوع الفجر وطلوع الشمس، أو (ظل دائم لا تنسخه الشمس فهو باق لا يزول)[3].

---

(1) التحرير والتنوير ج 4/ 90.

(2) الكشاف ج 1/ 535.

(3) تقول العرب لكل شيء طويل لا ينقطع: (ممدود). قال لبيد:

غلب البقاء وكان غير مغلب ... دهر طويل دائم ممدود

وقيل (إنه الظل الحاصل من التفاف أشجار الجنة وكثرة أوراقها)[1].

وحين نقرأ قوله ـ عز وجل ـ في سورة الواقعة ـ أيضاً ـ: ﴿وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ * لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ﴾، وندرك الأثر البليغ في هذه المقابلة، فـ(اليحموم) دخان أسود شديد السواد[2]. ﴿لَّا بَارِدٍ﴾ كسائر الظلال، ولا نافع لمن يأوى إليه من أذى الحر[3].

أي: لا بارد المنزل ولا كريم المنظر، وقيل: لا بارد يستراح إليه، ولا كريم فيشتهى مثله فأنت ترى أن ﴿ٱلظِّلِّ﴾ ـ هنا ـ قد وصف بأنه ﴿مِّن يَحْمُومٍ﴾؛ للإشعار بأنه ظل دخان لهب جهنم والدخان الكثيف له ظل؛ لأنه بكثافته يحجب ضوء الشمس وإنما ذكر من الدخان ظله، لمقابلته بالظل الممدود المعد لأصحاب اليمين في قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾؛ أي: لا ظل لأصحاب الشمال سوى ظل اليحموم. ونتلمس من هذه المقابلة معنى (التهكم)؛ إذا وصف هذا الظل بما يفيد نفي البرد عنه ونفي الكرم فبرد (الظل) ما يحصل في مكانه من دفع حرارة الشمس وكرم (الظل) ما فيه من الصفات الحسنة في الظلال مثل سلامته من هبوب السموم عليه، وسلامة الموضع الذي يظلله، وسلامة أرضه، ونحو ذلك[4].

فكأن السياق الكريم يخبرنا أنه ظل خاص؛ (ظل اليحموم). لا برودة فيه ـ كما هي في طبيعة الظل ـ ولا كرامة الظلال فيه. ويبدو أن السياق الكريم عدل عن وصف (الظل) بالحرارة أو المضرة إلى وصفه بنفي البرد ونفي الكرم، لتذكير

(1) روح المعاني ج 27/ 141، التحرير والتنوير ج 27/ 229، مجمع البيان في تفسير القرآن ج 27/ 123.
(2) معجم غريب القرآن «يحموم».
(3) تفسير البيضاوي ص 711.. ويقول الفراء (العرب تجعل الكريم تابعاً لكل شيء نفت عنه وصفاً تنوي به الذم، تقول: ما هو سمين وكريم وما هذه الدار بواسعة ولا كريمة) ينظر: معاني القرآن ج 3.
(4) الكشاف 2/ 363.

السامعين بما حرم منه أصحاب الشمال، عسى أن يحذروا أسباب الوقوع في الحرمان. وقال ـ تعالى ـ في سورة «المرسلات»: ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ * لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِى مِنَ ٱللَّهَبِ﴾ [المرسلات: 30 ـ 31]؛ أي: انطلقوا إلى نار لها ثلاث شعُبٍ فسماها ـ تعالى ـ ﴿ظِلًّا﴾ لسواد نار جهنم؛ وقيل: هو دخان جهنم له ثلاث شعب تحيط بالكافر ثم وصف ـ تعالى ـ ﴿ٱلظِّلَّ﴾ فقال ﴿لَّا ظَلِيلٍ﴾: أي: غير مانع من الأذى يستره عنه: ﴿وَلَا يُغْنِى مِنَ ٱللَّهَبِ﴾؛ أي: إذا استظلوا بذلك الظل لم يدفع عنهم حر اللهب.

وفي سورة الرعد وصف الله ـ تعالى ـ (ظل الجنة) مقابلاً لقوله ـ تعالى ـ في السورة نفسها: ﴿لَّهُمْ عَذَابٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَقُّ ۖ﴾ [الرعد: 34].

فقال تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا ۚ . . .﴾ [الرعد: 35].

فإن في قوله ـ تعالى ـ: ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا ۚ﴾: بياناً لفضل تلك الجنان وتميزها عن هذه الجنان المشاهدة.

ومعنى قوله ـ عز وجل ـ: ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ﴾: لا ينقطع ثمرها، كقوله ـ تعالى ـ: ﴿لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾ [الواقعة: 33].

فإن ﴿أُكُلُهَا﴾ لا ينقطع أبداً ﴿وَظِلُّهَا ۚ﴾ دائم: (لا ينسخ كما ينسخ في الدنيا بالشمس)[1].

وذهب بعض المفسرين إلى أن دوام الظل، كناية عن التفاف الأشجار بحيث لا فراغ بينها تنفذ منه الشمس، كما قال ـ تعالى ـ: ﴿وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا﴾ [النبأ: 16] وذلك من محال الجنات وملاذها[2].

---

(1) التحرير والتنوير ج 3/ 155.

(2) روح المعاني ج 13/ 164.

وقال آخرون: (يجوز أن يراد بالظل العزة أو الرفاهية)[1].

ونحن نحس من معنى (دوام الظل) كناية إلى دوام الراحة والعزة والرفاهة.

ومثله قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا﴾ [الإنسان: 14].

يعني: أن أفياء أشجار الجنة قريبة منهم، وقيل: إن ظلال الجنة لا تنسخها الشمس كما تنسخ ظلال الدنيا.

وفي خاتمة هذا المبحث، نؤكد ظاهرة أسلوبية تفرد بها القرآن الكريم ولم تكن غائبة عن كثير من اللغويين والمفسرين، وهي:

أن محاولة استشراف معنى النظم القرآني ـ في الآيات الكونية ـ وتدبر بعض أسرار البنية النصية، والتقرب من القيم الجمالية، وإدراك الإشارات البلاغية واستيعابها، يكشف للدارس بعض الظواهر الطبيعية، والحقائق الكونية التي نبّه إليها السياق الكريم، وتوصل إلى بعضها العلم الحديث متأخراً.

فمجال هذه الدراسة ـ في هذا المبحث وغيره ـ أكد حقائق وقوانين لا جدال ولا خلاف فيها، ومنها: أَنَّ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ خلق كلَّ شيء، خلق الشمس والأرض. ومَدَّ الظلَّ وقبضه قبضاً يسيراً وهو الحاكم المدبر لحركته ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ﴾، والمقدر لمكان انتقاله وأحواله، وأزمنة حركته، في الحياة الدنيا.

وفي الآخرة للظل خصوصيات أخرى، تختلف عند أهل الجنة التي وُعِدَ المتقون فـ(ظلهم ظليل) و(ممدود) و(دائم)، لا ينسخ بالشمس ـ كما ينسخ في الدنيا ـ أما أهل النار فظلهم ﴿مِّن يَحْمُومٍ * لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ﴾ [الواقعة: 43 ـ 44].

﴿لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ﴾ [المرسلات: 31].

فالله ـ تعالى ـ هو خالق الشمس والظل، والمدبر والمقدر للمكان والزمان والدوام والفناء.

فتبارك الله ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾ [السجدة: 7].

(1) روح المعاني 13/ 164.

الفهارس العامة

(1) فهرس الآيات القرآنية الكريمة

(2) فهرس الأشعار

(3) فهرس الأعلام

(4) المصطلحات البلاغية والنقدية

(5) فهرس المصادر والمراجع

(6) الفهرس العام للكتاب

(1) فهرس الآيات القرآنية الكريمة

(2) فهرس الأشعار

(3) فهرس الأعلام

(أ)

(ب)

(ت)

(ج)

(ح)

(ع)

(ف)

(ق)

(4) المصطلحات البلاغية والنقدية

(5) فهرس المصادر والمراجع

القرآن الكريم

1 ـ أساس البلاغة ـ أبو القاسم جار الله الزمخشري: دار الكتب المصرية ـ القاهرة.

2 ـ الإسلام في عصر العلم ـ تأليف محمد أحمد الغمراوي ـ إعداد عبد السلام الكرواني دار الكتب الحديثة ـ مطبعة السعادة ـ القاهرة/ مصر.

3 ـ إصلاح المنطق ـ يعقوب بن إسحاق بن السكيت ـ تحقيق محمد شاكر وعبد السلام هارون ـ دار المعارف ـ مصر 1949.

4 ـ الأمثال في القرآن الكريم ـ ابن قيم الجوزية ـ تحقيق سعيد محمد نمر الخطيب ـ بيروت دار المعرفة ط (2) سنة 1983.

5 ـ الإيضاح في علوم البلاغة ـ الخطيب القزويني ـ شرح وتعليق محمد عبد المنعم خفاجي ـ مكتبة الحسين التجارية 1949.

6 ـ البحر المحيط ـ أبو حيان الأندلسي ـ مطبعة السعادة ـ القاهرة ـ مصر ـ 1929.

7 ـ بديع القرآن ـ ابن أبي الإصبع ـ تحقيق د. حنفي محمد شرف ـ مكتبة نهضة مصر القاهرة ط (1) ـ 1957.

8 ـ بهجة المعرفة ـ (موسوعة علمية مصورة) ـ الكون ـ المجموعة الأولى مجلد (2) ـ الشركة العامة للنشر والتوزيع والإعلان ـ طرابلس.

9 ـ تأملات في سورة الفرقان ـ د. حسن محمد باجورة ـ دار النور ـ مطبعة نهضة مصر 1976.

10 ـ التبيان في علم المعاني والبديع والبيان ـ شرف الدين حسين بن محمد الطيبي ـ تحقيق د. هادي عطية مطر ـ مكتبة النهضة العربية ط (1) 1987.

11 ـ التحرير والتنوير ـ الشيخ الطاهر بن عاشور ـ تونس ـ دار الشرقية 1964.

12 ـ تفسير البيضاوي ـ المسمى (أنوار التنزيل وأسرار التأويل) عبد الله بن علي البيضاوي ـ مطبعة البابي الحلبي ـ المكتبة التجارية الكبرى ـ القاهرة ـ مصر.

13 ـ تفسير ابن جزي ـ الإمام أحمد بن جزي الكلبي ـ أشرف عليه لجنة التحقيق/ دار الكتاب العربي ـ بيروت ـ لبنان 1983.

14 ـ تفسير الرازي ـ المسمى (التفسير الكبير) للإمام محمد بن عمر الفخر الرازي ط (1) المطبعة البهية 1938.

15 ـ تفسير أبي السعود العمادي، المسمى (إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم)، أبو السعود العمادي ـ دار إحياء التراث العربي ـ لبنان ـ بيروت.

16 ـ تفسير سورة الزخرف ـ الشرباصي الحسنين ـ مطبعة دار التأليف، مصر ط (1) 1969.

17 ـ تفسير سورة النور ـ أبو العباس تقي الدين أحمد بن عبد الحليم بن تيمية ـ عني بالتصحيح محمد منير الدمشقي ـ الطباعة المنيرية/ القاهرة ط (2) 1358هـ.

18 ـ التفسير العلمي للآيات الكونية في القرآن الكريم ـ حفني أحمد ـ دار المعارف ـ مصر 1960.

19 ـ تفسير القرطبي المسمى (الجامع لأحكام القرآن) ـ أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنباري القرطبي ـ مطبعة دار الكتب ـ القاهرة 1935.

20 ـ تفسير ابن كثير ـ أبو الفداء ـ إسماعيل عماد الدين بن كثير (أربعة أجزاء) دار الجيل بيروت.

21 ـ تفسير المنار ـ (تفسير القرآن الكريم) ـ محمد رشيد رضا ـ دار المعرفة ـ بيروت/ لبنان.

22 ـ تنوير المقباس من تفسير ابن عباس ـ أبو طاهر محمد يعقوب الفيروزآبادي ـ مطبعة مصطفى البابي الحلبي ـ ط (2) 1951.

23 ـ جمالية المضمون والشكل في الإعجاز القرآني ـ د. مصطفى الصاوي الجويني ـ منشأة دار العارف الإسكندرية 1983.

24 ـ الجمان في تشبيهات القرآن ـ ابن ناقيا البغدادي تحقيق د. أحمد مطلوب ـ دار الجمهورية ـ بغداد 1986.

25 ـ جمهرة أشعار العرب ـ أبو زيد محمد بن أبي الخطاب القرشي ـ بيروت ـ لبنان 1963.

26 ـ الجواهر في تفسير القرآن الكريم ـ الأستاذ الحكيم الشيخ طنطاوي جوهري ـ مطبعة البابي الحلبي ـ القاهرة/ مصر ـ ط (2) 1350هـ.

27 ـ حسن البيان في تفسير مفردات القرآن ـ محي الدين اضاني ـ مطبعة الترقي ـ دمشق 1342هـ.

28 ـ دراسات لغوية في القرآن ـ د. أحمد ماهر البقري ـ مؤسسة الجامعة/ الإسكندرية ـ 1982.

29 ـ ديوان أبي تمام ـ تحقيق محمد عبده عزام ـ دار المعارف/ مصر ط (1).

30 ـ ديوان جرير ـ تحقيق ـ نعمان أمين طه ـ دار المعارف ـ مصر/ القاهرة.

31 ـ ديوان ذي الرمة ـ تحقيق ـ عبد القدوس أبو صالح ـ مجتمع اللغة العربية ـ دمشق.

32 ـ ديوان الشماخ ـ تحقيق صلاح الدين الهادي ـ دار المعارف ـ مصر 1968.

33 ـ ديوان لبيد ـ تحقيق د. إحسان عباس ـ الكويت 1962 ـ ط (1).

34 ـ ديوان ليالي الملاح التائه ـ علي محمود طه ـ شركة فن الطباعة ـ ط (2) ـ القاهرة 1941.

35 ـ ديوان ابن مقبل ـ تحقيق د. عزة حسن ـ دمشق 1962.

36 ـ روح المعاني ـ شهاب الدين محمود الآلوسي البغدادي ـ الطباعة المنيرية ـ دار إحياء التراث العربي ـ بيروت/ لبنان.

37 ـ سورة الرحمٰن وسور قصار/ عرض ودراسة ـ د. شوقي ضيف ـ دار المعارف ـ مصر 1971.

38 ـ شرح التلخيص ـ محمد بن محمد بن محمود الببرتي ـ دراسة وتحقيق ـ محمد مصطفى رمضان صوفية ـ طرابلس ـ المنشأة العامة للنشر والتوزيع ـ 1983.

39 ـ شرح ديوان الحماسة ـ المرزوقي ـ تحقيق أحمد أمين وعبد السلام هارون ـ مطبعة لجنة التأليف والنشر ـ القاهرة ـ ط (1) 1959.

40 ـ علوم الزراعة والقصص الزراعي في القرآن الكريم ـ د. مصطفى كامل ـ مطبعة السعادة ط (1)، 1971.

41 ـ فتح البيان في مقاصد القرآن ـ صديق حسن خان ـ مطبعة العاصمة ـ القاهرة ـ 1965.

42 ـ الفتوحات الإلهية بتوضيح تفسير الجلالين للدقائق الخفية ـ سليمان بن عمر العجيلي الشهير بـ(الجمل) ـ مطبعة البابي الحلبي.

43 ـ القرآن تفسير الكون والحياة ـ محمد العفيفي ـ دار السلاسل ـ الكويت 1986.

44 ـ الكاشف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل ـ أبو القاسم جار الله محمود الزمخشري ـ بيروت ـ دار الكتاب العربي 1947.

45 ـ الكون والإعجاز العلمي للقرآن ـ د. منصور محمد حسب النبي ـ دار الفكر العربي ـ القاهرة ط (3) 1991.

46 ـ لسان العرب ـ ابن منظور ـ دار صادر ـ بيروت 1956.

47 ـ الماء والحياة بين العلم والقرآن ـ د. عبد العليم خضر ـ الدار السعودية ـ جدة 1985.

48 ـ مجمع البيان في تفسير القرآن ـ أبو الفضل بن الحسن الطبرسي ـ دار الفكر ودار الكتاب اللبناني/ بيروت 1955.

49 ـ محاضرات في شعر علي محمود طه ـ د. نازك الملائكة ـ معهد الدراسات العربية العالمية ـ القاهرة ـ مصر.

50 ـ المختار من تفسير القرآن الكريم ـ الشيخ محمد متولي الشعراوي ـ مكتبة التراث الإسلامي ـ القاهرة ـ مصر.

51 ـ معاني القرآن ـ أبو زكريا يحيى بن زياد الفراء (ج 3) تحقيق عبد الفتاح شلبي ـ علي شلبي ناصف ـ الدار المصرية للتأليف والنشر.

52 ـ معجم ألفاظ القرآن ـ وضعه محمد فؤاد عبد الباقي ـ دار الفكر للطباعة والنشر/ 1986.

53 ـ معجم غريب القرآن ـ (مستخرجاً من صحيح البخاري) ـ وضعه محمد فؤاد عبد الباقي ـ دار إحياء الكتب العربية مصطفى البابي ـ 1950.

54 ـ المفردات في غريب القرآن ـ الراغب الأصفهاني ـ تحقيق محمد سيد كيلاني ـ القاهرة 1961.

55 ـ المنهج الإيماني للدراسات الكونية في القرآن الكريم د. عبد العليم عبد الرحمٰن خضر ـ الدار السعودية للنشر والتوزيع.

56 ـ الموسوعة العلمية في الرسم والتلوين ـ محي الدين طالو ـ دار دمشق/ دمشق/ سوريا ط (1) 1987.

57 ـ النجوم في الشعر العربي القديم، حتى أواخر العصر الأموي ـ د. يحيى عبد الأمير شامي ـ منشورات دار الآفاق الجديدة ـ بيروت ـ ط (1) 1982.

58 ـ نهاية الأرب في فنون الأدب ـ شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري ـ مطابع كوتساتسوماي وشركائه ـ طبعة مصورة من طبعة دار الكتاب/ القاهرة.

(6) الفهرس العام للكتاب



ISBN 978-9959-28-096-1
9 789959 280961